مُخْتَصَرُ كِتَابِ

مَنْهَجُ الأَنْبِيَاءِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ

« فِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ »

تَأْلِيفُ العَلَّامَةِ المُحَدِّثِ الشَّيْخِ

رَبِيعِ بْنِ هَادِي الْمَدْخَلِيّ

اخْتَصَرَهُ

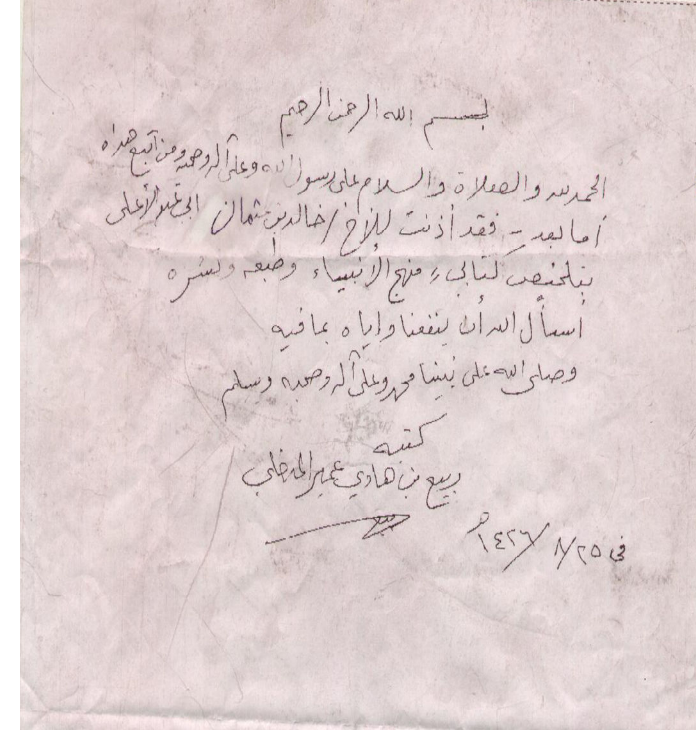
أَبُو عَبْدِ الأَعْلَى خَالِدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ الْمِصْرِيّ



الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

رقم الإيداع: ١٨٦٩٨/٢٠٠٥م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه

أما بعد: فقد أذنت للأخ/ خالد بن عثمان أبي عبد الأعلى

بتلخيص كتابي: منهج الأنبياء وطبعه ونشره

أسأل الله أن ينفعنا وإياه بما فيه

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

في ٢٥/٨/١٤٢٦هـ

الأصل الخطي لإذن فضيلة الشيخ

ربيع بن هادي عمير المدخلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام عَلىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أمّا بعد:

فقد أذنتُ للأخ: خالد بن عثْمان أبي عبد الأعلىٰ بتلخيص كتابي: «منهج الأنبياء» وطبعه ونشره.

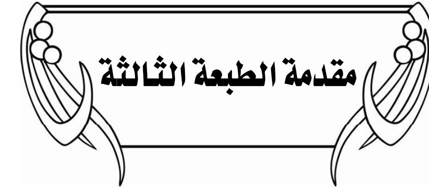
أسأل الله أن ينفعنا وإيّاهُ بِمَا فيه، وصَلَّىٰ الله عَلىٰ نبينا مُحَمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسَلَّم.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

فِي ٢٥/ ٨/ ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله، والحمدُ لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وأصحابه، ومن اتبع هداه، أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثالثة من «**مختصر كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ **فيه الحكمة والعقل**»، تأليف شيخنا الإمام ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله تعالىٰ ونصر به الحق -؛ تصدر بعد مضي حوالي ستِّ سنوات علىٰ الطبعة الثانية، وقد نفع الله عَزَّوَجَلَّ بالطبعتين السابقتين نفعًا كبيرًا، والمنة لله عَزَّوَجَلَّ وحده.

فكان مِمَّا انشرح به صدري أن قام بعض إخواننا الخطباء في مصر بإلقاء عدة خطب من هذا المختصر، بيّنوا فيها بعض أصول المنهج الحق - منهاج النبوة -، وهو الذي حمله إلينا السلف الصالح من الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين لهم بإحسان، والأمر كما قال مصنِّف الأصل شيخنا العلامة ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله تعالىٰ ونفع بعلمه - في مقدِّمته علىٰ الطبعة الثانية للأصل: «أنّه قد استقبله الشباب المسلم الحق في كل مكان بفرح وحفاوة بالغة؛ لأنّه وضح لهم دعوة الأنبياء حتىٰ جعلها لهم كالشمس في رابعة النهار، وأزال عنها اللبس والتّحريف والتلبيس من كتّابٍ قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، لا يهمّهم إلا حشد النّاس حولهم وحول شعاراتهم المزيّفة، لا يهمهم

أن تكون هذه الحشود من الروافض أو المنافقين أو الخوارج المارقين أو غلاة الصوفيّة الملحدة من العوام وأشباههم من عباد القبور، أو من الأصناف التعيسة المنكودة، لا يهمهم أن تحتشد حولهم وحول شعاراتهم هذه، ولو ترتّب علىٰ ذلك ما ترتّب من النتائج الوخيمة في الدنيا والآخرة.

لأنّهم كما وصفهم رسول الله ﷺ: «**دعاة علىٰ أبواب جهنّم؛ من أجابهم قذفوه فيها**»، ولأنّهم كما وصفهم الرسول الناصح الصادق الأمين ﷺ: «**شياطين في جثمان إنس**»، وإلا فما الذي يحملهم - ومن دار في فلكهم - علىٰ النفور والشذوذ عن منهج الأنبياء الواضح النيّر، الذي وضّحه القرآن وبيَّن أنّه شرعتهم ومنهجهم، ألا وهو الدين الخالص؛ توحيد الله في أسمائه وصفاته،

وتوحيده في ربوبيّته، وتوحيده في ألوهيّته والكفر بالطواغيت؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ابحث أي دعوة من دعوات الفرق والأحزاب - غير السلفيّة - هل ترىٰ فيها عينًا أو أثرًا لهذا المنهج في مدارسهم أو أفرادهم أو جماعاتهم، ثمّ دلني عليه إن كنت صادقًا، أمّا أنا فلا أجد عند هذه الفرق والأحزاب إلا حربًا مستعرة علىٰ هذا المنهج وعلىٰ أهله، ولا أرىٰ إلا الاستخفاف والسخرية بهذا المنهج وبأهله، ولا أرىٰ إلا العداوة والبغضاء لهذا المنهج ولأهله، ولا أرىٰ إلّا الحفاوة والاحترام للدعوات المنحرفة الضالّة وأهلها،

وهذا الأخير قد تراه وتسمعه كثيرًا ممن يلبس لباس السلفيّة، وهم إلىٰ خصومها أقرب رحمًا، تربط بينهم وشائج لا يعلمها إلا الله».

قلت: واعلم - رحمك الله - أن الدعوات الحزبية البدعية مهزومة داحضة إلىٰ زوال - إن شاء الله -؛ لأنها قامت علىٰ شفا جرُف هارٍ، وإن أصحابها داحضة حجتهم فارغة جعبتهم، لا تقوىٰ سواعدهم علىٰ دفع حجج أهل الحق من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، فلا يملكون إلا التهويش وإثارة الشبهات.

واعلم - هداك الله سبحانه للحق - أن هذه الأحزاب قد شرَّقت وغرَّبت في البدعة والبعد عن منهاج النبوة؛ فلم ينصروا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فتحقَّق فيهم سنة الله سبحانه بالخذلان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ

ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**تفسيره**» (**٧/ ٣٤٧**): «يعني تعالىٰ ذكره بذلك: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله، علىٰ من ناوأكم وعاداكم من أعدائه والكافرين به؛ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من الناس، يقول: فلن يغلبكم مع نصره إياكم أحد، ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارها من خلقه، فلا تهابوا أعداء الله لقلة عددكم وكثرة عددهم، ما كنتم علىٰ أمره واستقمتم علىٰ طاعته وطاعة رسوله؛ فإن الغلبة لكم والظفر، دونهم، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ يعني: إن يخذلكم ربكم بخلافكم أمره وترككم طاعته وطاعة رسوله؛ فيكلكم إلىٰ أنفسكم؛ ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى

يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾.

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في **«تفسيره»**: «أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته؛ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾، فلو اجتمع عليكم مَنْ في أقطارها وما عندهم من العدد والعُدد؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم؛ فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ ويكلكم إلىٰ أنفسكم؛ ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾؛ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق».

قلت: وقد مرَّت فترة ما سمَّوه بـ«الربيع العربي» بفتنها ودمائها، وقال قائلهم: إن الربيع العربي أسقط ربيع المدخلي!!

فماذا كان؟! جرت سنة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الحزبيين

الخوارج الذين تركوا نصرة الدين الحق - كتابًا وسنَّة - إلىٰ نصرة حزب الإخوان المسلمين وما تفرع عنه من أحزاب ضالة، وسلَّط الله سبحانه عليهم من حوَّل ربيعهم المشئوم إلىٰ خريف دامٍ، وبقي منهج ربيع المدخلي، الذي هو منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله - فيه الحكمة والعقل -، المنهج الوحيد الباقي في حفظ هذا الدين، وما علينا إلا أن نسلكه؛ كي نحقِّق العزة والنصرة والتمكين.

وكُلُّ مَن سلك سبيلًا غيره باء بالفشل والخيبة والخسران والخذلان؛ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ

﴿يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «تيسير الكريم الرحمن»**: «ومعنىٰ هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله أن سعيه سيفيده شيئًا؛ اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول؛ فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول – إن كان ممكنًا –؛ ائت الأمر من بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلىٰ حبل من ليف أو غيره، ثم علِّقه في السماء، ثم اصعد به حتىٰ تصل إلىٰ الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي

والمكيدة، وأما ما سوىٰ هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين؛ ما لا يخفىٰ، ومن تأييس الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم».

قلت: وإن نصرة دين الله الحق تحتاج إلىٰ رجال ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

واعلم – رحمك الله – أن علامة أهل الحق الثبات عليه في وقت اشتداد الفتن؛ فلا يبدلون منهجهم ولا

يغيِّرون طريقتهم الرشيدة وفق الأهواء الحزبية والسياسية، وقد بوَّب ابن حبان في «صحيحه»: ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الْفِتَنَ إِذَا وَقَعَتْ وَالْآيَاتِ إِذَا ظَهَرَتْ؛ كَانَ فِي خَلَلِهَا طَائِفَةٌ عَلَىٰ الْحَقِّ أَبَدًا.

وهذه هي الطائفة المنصورة والفرقة الناجية التي تحمل منهاج النبوة إلىٰ قيام الساعة.

وبوَّب البخاري: «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ**» يُقَاتِلُونَ وَهُمْ أَهْلُ العِلْمِ».

وأخرج حديث المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**».

نسأل الله سبحانه أن يثبتنا علىٰ منهج الأنبياء

- منهاج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة - حتىٰ نلقاه وهو راضٍ عنا.

وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه وسلَّم.

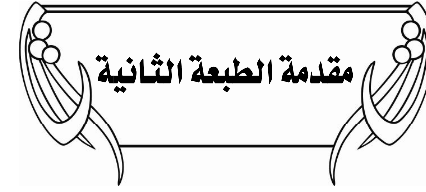
وكتب

أبو عبدالأعلى خالد بن

محمد بن عثمان المصري

ظهر السبت ١٦ شعبان ١٤٣٥هـ





باسم الله، والحمدُ لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وأصحابه، ومن اتبع هداه، أمَّا بَعْد؛ فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب: «**مختصر كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ **فيه الحكمة والعقل**»، ولم أضف في هذه الطبعة شيئًا جديدًا سوىٰ إصلاح التصحيفات المطبعية والإملائية اليسيرة التي اعترت الطبعة الأولىٰ، وأضفتُ مقدمة الشيخ صالح الفوزان – حفظه الله – علىٰ الكتاب الأم كاملة؛ لِمَا فيها من فوائد غزيرة.

وأيضًا وجدتُ من الفائدة حذف مقدمتي علىٰ الطبعة الأولىٰ للمختصر بعد أن أدَّت دورها مع الطبعة الأولىٰ، ومن ثَمَّ يحتفظ «المختصر» – في طبعته الثانية – بمقصد هام من مقاصد الأصل، ألا وهو التدرج بالقارئ المبتدئ من بداية الكتاب إلىٰ آخره بالتأصيل العلمي الواضح، الذي يأخذ بيد المتعصِّب للرجال بعيدًا عن تعصُّبه لَّما يُشرق في قلبه نور منهج الأنبياء، حتىٰ إذا تعرَّض المصنِّف – حفظه الله – في الثلث الأخير من الكتاب لذكر بعض الرموز عند الشباب المتحمس أو المتعصِّب؛ استطاع الموفَّق منهم أن يستوعب النقد الموجّه لهذا الرمز دون غضب أو حميَّة جاهلية؛ وهذا الهدف قد لا يتحقق إذا بدأ بقراءة المقدِّمة التي مهدتُ بها بين يدي الطبعة الأولىٰ للمختصر؛ حيث

تعرضت فيها لذكر أسماء بعض الرموز عند هؤلاء الشباب بشيء من النقد المجمل، الذي قد يتسبب فِي نُفرة هؤلاء الشباب عن إتمام قراءة بقية الكتاب، والاهتداء بما فيه من حقائق؛ نظرًا لغشاوة التعصُّب التي غطَّت أبصارهم[1]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

نسأل الله أن يجعلنا من أهل الحق، المتمسكين به، والمدافعين عنه، وأن يجعلنا من الذين قال فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

[الأعراف: ١٧٠]

وكتب

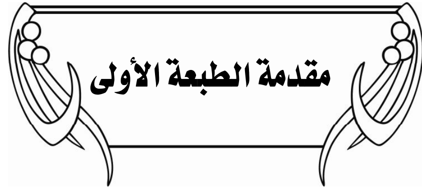
أبو عبد الأعلى

خالد بن محمد بن عثمان

فِي ليلة السبت الرابع من شوال لعام ١٤٢٩هـ

---

(١) وقد وجدت المصلحة في إعادة إثبات مقدمة الطبعة الأولىٰ مرة أخرىٰ في هذه الطبعة.



بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وآله ومن اتبع هداه،

أمَّا بَعْد:

فهذا مختصر كتاب: «منهج الأنبياء فِي الدعوة إِلَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فيه الحكمة والعقل»، لفضيلة الشيخ العلامة المحدِّث ربيع بن هادي المدخلي – حفظه الله –؛ قمتُ به تيسيرًا علىٰ طلَّاب العلم والدعاة بذكر أهم عناصر الكتاب مع دمجها فِي سياق واحد، مما يُخفف من حجم الكتاب، ويقربه إِلَىٰ الكافة.

ونقدِّم هذا الكتاب في وقت قد اشتدت فيه الحملة علىٰ منهج العلامة ربيع من أُناس كانوا من قبل ينصرون المنهج السلفي الذي يحمله العلامة ربيع، ثم إذا بهم فِي فتنة أبي الحسن الدهماء يتهمون زورًا وبهتانًا إمام الجرح والتعديل - بحقٍّ - بأنه ليس إلا مجرد حامل الراية في حملة العلماء علىٰ سيد قطب، وليس هو إمام هذا العلم في هذا الزمان، ويغمزونه بالغلو، وأن منهجه قد تغيَّر بعد وفاة المشايخ الثلاثة: ابن باز والألباني وابن عثيمين - رحمة الله عليهم -، أو بتحديد أدق - علىٰ زعمهم - منذ أن تكلَّم فِي أبي الحسن المصري، وأفشىٰ التحذير من مخالفاته الصارخة للمنهج السلفي.

وادَّعوا أن كتابات العلامة ربيع تنقسم إِلَىٰ قسمين: قسم معتدل، وهي كتاباته القديمة - ويدخل فيها كتاب

«منهج الأنبياء» -، وقسم قائم علىٰ الغلو، وهو بالتحديد كتاباته فِي التحذير من أبي الحسن، وكأن ربيعًا قد تنازل عن منهجه الأول فِي الدعوة والذي يمثل كتاب «منهج الأنبياء» جانبًا كبيرًا منه.

وهذا كلُّه باطل ورجم بالغيب بلا بينة؛ فنقول لهؤلاء المتعصِّبين لأبي الحسن: هاتوا لنا البراهين الواضحة علىٰ أن كتابات العلامة ربيع الأخيرة فِي ردِّه علىٰ أبي الحسن قد سلك فيها مسلكًا يخالف الأصول التي أصَّلها فِي كتبه السابقة: «منهج الأنبياء»، و«منهج أهل السنة فِي نقد الرجال والكتب والطوائف»، و«جماعة واحدة لا جماعات»، و«أضواء إسلامية علىٰ عقيدة سيد قطب»، وغيرها من ردوده علىٰ سيد قطب، وعبد الرحمن عبد الخالق، والغزالي، وسفر الحوالي، وسلمان العودة،

وغيرهم من السالكين لسبل أهل الأهواء.

وها نحن نعيد نشر كتاب «منهج الأنبياء» لكن مُخْتَصَرًا - بإذن من الشيخ -، مما يدل علىٰ أن الشيخ ما زال - إن شاء الله - علىٰ المنهج نفسه الذي دعا إليه في هذا الكتاب، والذي كان هو أحد أسباب تبجيل هؤلاء المخالفين الجدد للشيخ، ثم إذ بهم يتهمونه الآن بالغلو أو بالحيدة عن منهجه القديم.

وعند نشر الكتاب لأول مرة لاقىٰ الشيخ أيضًا نحو هذه الاتهامات من الحزبيين؛ ونُشر الكتاب مرات أخرىٰ والشيخ ثابت علىٰ المنهج نفسه، ثم إذ بنا نفاجأ بهؤلاء - الذين كانوا يرفعون راية السلفية ثم سقطوا في حزبية أبي الحسن - يقعون فيما وقع فيه الحزبيون القدامىٰ - من قبل - ؛ فمن إذن الذي غيَّر وبدل؟!!

* **ونحن نسأل هؤلاء**: ماذا أنتم قائلون عن ردود العلامة ربيع علىٰ فالح الحربي، من أي القسمين هي؟!

إن ردود العلامة ربيع الأخيرة علىٰ طائفة الحدادية - وعلىٰ زعيمها فالح الحربي - وافقت هوىٰ المتحزبين لأبي الحسن، فطاروا[1] بها، ولكن رغم هذا ما أثناهم هذا عن غمز إمام الجرح والتعديل ولمزه، واستكبروا عن الاعتراف بخطئهم.

وقام هؤلاء بالترويج لفرية عجيبة عن الشيخ وتلاميذه هي الفرية نفسها التي ساقها الحزبيون القدامىٰ أمثال عبد الرحمن عبد الخالق، وعدنان عرعور، ومن

(١) ولكن الحزبيين في اليمن يؤيدون فالحًا، ومنهم حزب أبي الحسن، بل هم أول من أيد فالحًا؛ فانظر كيف يلعب الشيطان والهوىٰ بأهل الأهواء.

سار عَلىٰ دربهما، هذه الفرية هي تلقيبهم الشيخ وتلاميذه ومن سار علىٰ نهجهم بـ«المداخلة»، واتهامهم إياهم بأنهم أصحاب منهج غالي فِي جرح الآخرين، وأنهم علىٰ حدِّ تعبيرهم جرَّاحون قصَّابون، لا همَّ لهم إلا النهش فِي أعراض طلبة العلم.

واتهم هؤلاء الشيخ ربيعًا وتلاميذه بأنهم هم الحدادية أصحاب الغلو في تبديع السلفيين وإسقاط العلماء.

وهذا من تناقض هؤلاء أو من جهلهم، حيث إن ردود العلامة ربيع علىٰ الحدادية قديمًا وحديثًا؛ ظاهرة لائحة لا تخفىٰ، فهو الذي كشف عوار زعيمها الأول محمود الحداد، ثم عبد اللطيف باشميل، ثم أخيرًا فالح الحربي.

فأين جهود هؤلاء العلمية فِي الرد علىٰ الحدادية وكشف عوارها؟! لا شيء إلا الغمز واللمز في الأبرياء.

وازداد طغيان هؤلاء المفترين بادِّعائهم أن المداخلة - علىٰ حدِّ تسميتهم الباطلة - هم نواة لجماعة تكفير، وأنهم شابهوا الخوارج.

وهذا والله كذب وافتراء يأنف منه كل منصف لبيب، وترده عشرات المؤلَّفات للعلامة ربيع ولتلاميذه فِي مصر وغيرها، في محاربة الغلو فِي التكفير، بل ومحاربة الغلو فِي التبديع، ودعوة الناس إلىٰ الوسطية، وتحذيرهم من الحزبية والتحزب، وتحذيرهم من الخروج علىٰ الحكَّام بالكلمة أو السلاح.

وكي يمرر هؤلاء باطلهم لقَّبونا بـ«المداخلة»؛ حتىٰ يشعروا ولاة الأمر، ويشعروا المتعصِّبين لهم بأننا صرنا حزبًا مثل بقية الأحزاب المنحرفة عن السنة، ونقول: لقد رمونا بدائهم وانسلوا، فمن الذي تحزَّب وخرج عن

العلماء وصار يطعن فيهم بالباطل ويتهمهم ويتهم طلَّاب العلم السلفيين باتهامات باطلة، ويدلس علىٰ السُّذَّج بأخبار واهية، ويوهمهم بأن العلماء يصدرون أحكامهم بلا تثبت، وبناءً علىٰ عوامل نفسية لا علمية، ثم يستجيش عواطفهم لينصروه علىٰ باطله؟!!

ومهما كان فنحن نقدِّم للقرَّاء الأفاضل المنصفين هذا المختصر لكتاب «منهج الأنبياء فِي الدعوة إلىٰ الله»، ونقول لهم: هذا هو المنهج القويم فِي الدعوة، وهذا هو المنهج الذي يدعو إليه فضيلة الشيخ العلامة ربيع بن هادي إلىٰ وقتنا هذا، ويدعو إليه تلاميذه فِي مصر وغيرها، ويدعو إليه كلُّ السلفيين هذا المنهج القائم علىٰ الوسطية وعلىٰ محاربة الحزبيات، ومحاربة الغلو بشتىٰ صوره، والقائم علىٰ الاعتدال فِي الحكم علىٰ الآخرين بلا

إفراط ولا تفريط.

ونقول لهم: من ثبت عليه أنه يخالف ويطعن فِي هذا المنهج؛ فإنه ليس من المنهج السلفي فِي شيء، وبالتالي ليس من منهج ربيع في شيء، ولا يعتبر من تلاميذ ربيع، أو من بطانته، ولا يُحسب علىٰ ربيع أو علىٰ غيره من علماء المنهج السلفي، وإن ادَّعىٰ بلسان مقاله أو بلسان حاله ما ادَّعىٰ.

ومن الكلمات العطرة التي قالها العلامة الفوزان - حفظه الله - فِي تقديمه للكتاب الأم ما يلي: «من هؤلاء الذين بَيَّنوا ونصحوا فضيلة الشيخ الدكتور ربيع بن هادي المدخلي فِي هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو بعنوان: «منهج الأنبياء فِي الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فيه الحكمة والعقل»، فقد بيَّن - وفقه الله وجزاه خيرًا - منهج

الرسل فِي الدعوة إِلَىٰ الله كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، وعرض عليه منهج الجماعات المخالفة؛ ليتضح الفرق بين منهج الرسل وتلك المناهج المختلفة والمخالفة لمنهج الرسل، وناقش تلك المناهج مناقشة علمية منصفة مع التعزيز بالأمثلة والشواهد، فجاء كتابه - والحمد لله - وافيًا بالمقصود، كافيًا لمن يريد الحق، وحجة علىٰ من عاند وكابر، فنسأل الله أن يثيبه علىٰ عمله، وينفع به». اهـ.

والمقام لا يتَّسع هنا لتفنيد شبهات هؤلاء الطاعنين الجدد فِي العلامة ربيع - إمام الجرح والتعديل -، فنسأل الله أن ييسر لنا لقاءً آخر نتمكن فيه من إسقاط شبهاتهم الواهية، وإظهار سوء أدبهم مع السلفيين؛ علماء وطلبة علم، ونبين للأشهاد خطورة مجالسة أهل الأهواء، وخطورة الاعتداد بالنفس، والعجب بها، مما بلغ بهؤلاء

أن صاروا يستعلون عن قبول النصيحة، ويستميتون في باطلهم بطرًا للحق وغمطًا لأهله، والرسول ﷺ يَقُول: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[1].

ويقول ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوىٰ ها هنا** - ويشير إِلَىٰ صدره ثلاث مرات -، **بحسب امرئ من الشر أن يَحقر أخاه المسلم**»[2].

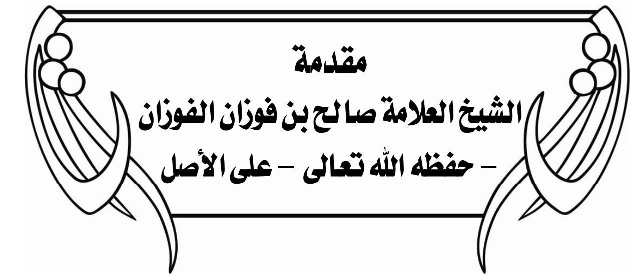
نسأل الله أن يرد هؤلاء إِلَىٰ الحق ردًّا جميلًا، وأن يجنبنا وإياهم نزغات الشيطان، واتباع الأهواء.

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وأصحابه وسلم.

وكتبه/ أبو عبد الأعلى
خالد بن محمد بن عثمان
فِي ليلة الخميس الرابع من شعبان لعام ١٤٢٦هـ

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين، أمرنا باتِّباع رسوله، والدّعوة إلىٰ سبيله، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد:

فإنَّ الدعوة إلىٰ الله هي سبيل الرسول ﷺ وأتباعه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، بل الدَّعوة إلىٰ الله هي مهمَّة الرّسل وأتباعهم جميعًا؛

لإخراج النَّاس من الظلمات إلىٰ النُّور، ومن الكفر إلىٰ الإيمان، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن النَّار إلىٰ الجنَّة.

وهي مرتكزة علىٰ دعائم وتقوم علىٰ أسس لا بدَّ منها، متىٰ اختلَّ واحدٌ منها؛ لم تكن دعوة صحيحة، ولم تثمر الثمرة المطلوبة، مهما بُذل فيها من جهود وأُضيع فيها من وقت؛ كما هو المشاهد والواقع في كثير من الدعوات المعاصرة التي لم تؤسَّس علىٰ تلك الدعائم ولم تقم علىٰ تلك الأسس.

وهذه الدعائم التي تقوم عليها الدَّعوة الصحيحة؛ هي كما دلّ عليه الكتاب والسنَّة تتلخص فيما يلي:

١ – العلم بما يدعو إليه، فالجاهل لا يصلح أن يكون داعية، قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة

هي العلم، ولأنَّ الداعية لا بدّ أن يواجه علماء ضلال يوجّهون إليه شبهات، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحقَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب**»؛ فإذا لم يكن الداعية مسلحًا بالعلم الذي يواجه به كل شبهة، ويجادل به كل خصم؛ فإنَّه سينهزم في أوَّل لقاء وسيقف في أوَّل الطريق.

٢- العمل بما يدعو إليه؛ حتىٰ يكون قدوةً حسنة تصدق أفعاله أقواله، ولا يكون للمبطلين عليه حجَّة، قال الله تعالىٰ عن نبيِّه شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنَّه قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود: ٨٨].

وقال تعالىٰ لنبيّه محمد ﷺ: ﴿**قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي**

وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [فصلت: ٣٣].

٣- الإخلاص بأن تكون الدَّعوة لوجه الله، لا يقصد بها رياءً ولا سمعة ولا ترفعًا ورئاسةً ولا طمعًا من مطامع الدنيا؛ لأنَّها إذا دخلها شيء من تلك المقاصد؛ لم تكن دعوة لله وإنَّما هي دعوة للنَّفس أو للطمع المقصود، كما أخبر الله عن أنبيائه أنَّهم يقولون لأممهم: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ [هود: ٢٩].

٤- البداءة بالأهمّ فالأهمّ؛ بأن يدعو أولًا إلىٰ إصلاح العقيدة بالأمر بإخلاص العبادة لله والنَّهي عن

الشرك، ثمّ الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الواجبات وترك المحرمات؛ كما هي طريقة الرسل جميعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وغير ذلك من الآيات.

ولما بعث النبي ﷺ معاذًا إلىٰ اليمن قال له: «إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللّيلة...» الحديث.

وفي طريقته وسيرته ﷺ في الدعوة؛ خير قدوة وأكمل منهج؛ حيث مكث ﷺ في مكّة ثلاث عشرة سنة

يدعو النَّاس إلىٰ التوحيد وينهاهم عن الشرك، قبل أن يأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج، وقبل أن ينهاهم عن الربا والزنا والسرقة وقتل النّفوس بغير حق.

٥- الصبر علىٰ ما يلاقي في سبيل الدعوة إلىٰ الله من المشاق، وما يواجه من أذىٰ النَّاس؛ لأنَّ طريق الدَّعوة ليس مفروشًا بالورود، وإنَّما هو محفوف بالمكاره والمخاطر، وخير أسوة في ذلك هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فيما واجهوا من أقوامهم من الأذىٰ والسخرية، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

وقال: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وكذلك ينال أتباع الرسل من الأذىٰ والمشاق بقدر

ما يقومون به من الدعوة إلىٰ الله اقتداءً بهؤلاء الرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلوات وأزكىٰ السلام.

٦- علىٰ الداعية أن يكون متحلِّيًا بالخلق الحسن، مستعملًا للحكمة في دعوته؛ لأنَّ هذا أدعىٰ لقبول دعوته؛ كما أمر الله نبيّيه الكريمين موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام أن يستعملا ذلك في مواجهة أكفر أهل الأرض وهو فرعون الذي ادَّعىٰ الربوبيَّة، حيث قال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وقال تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧-١٩].

وقال تعالىٰ في حقّ نبيّنا محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟

مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

٧- علىٰ الدَّاعية أن يكون قوي الأمل لا ييأس من تأثير دعوته وهداية قومه، ولا ييأس من نصر الله ومعونته ولو امتدَّ الزمن وطال عليه الأمد، وله في رسل الله خير قدوة في ذلك.

فهذا نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلىٰ الله.

وهذا نبيّنا محمد ﷺ لمّا اشتدَّ عليه أذىٰ الكفّار وجاءه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين، قال: «**لا، بل أستأني بهم، لعلّ الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**».

ومتىٰ فقد الداعية هذه الصفة؛ فإنَّه سيقف في أوَّل الطريق ويبوء بالخيبة في عمله.

وإنَّ أيَّة دعوة لا تقوم علىٰ هذه الأسس ويكون منهجها قائمًا علىٰ منهج الرسل؛ فإنَّها ستبوء بالخيبة وتضمحل وتكون تعبًا بلا فائدة، وخير دليل علىٰ ذلك تلك الجماعات المعاصرة التي اختطت لنفسها منهجًا للدعوة يختلف عن منهج الرسل؛ فقد أغفلت هذه الجماعات - إلّا ما قلَّ منها - جانب العقيدة، وصارت تدعو إلىٰ إصلاح أمور جانبيَّة.

فجماعة تدعو إلىٰ إصلاح الحكم والسياسة، وتطالب بإقامة الحدود وتطبيق الشريعة في الحكم بين النَّاس - وهذا جانب مهم لكنَّه ليس الأهم -؛ إذ كيف يطالب بتطبيق حكم الله علىٰ السارق والزاني قبل أن يطالب

بتطبيق حكم الله علىٰ المشرك، كيف يُطالب بتطبيق حكم الله بين المتخاصمين في الشاة والبعير، قبل أن يُطالب بتطبيق حكم الله علىٰ عبّاد الأوثان والقبور، وعلىٰ الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته فيعطِّلونها عن مدلولاتها ويحرفون كلماتها.

أهؤلاء أشدّ جرمًا أم الذين يزنون ويشربون الخمر، ويسرقون؟!! إنَّ هذه الجرائم إساءة في حق العباد، والشرك ونفي الأسماء والصفات إساءة في حق الخالق سبحانه - وحق الخالق مقدَّم علىٰ حقوق المخلوقين -.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الاستقامة» (١/ ٤٦٦): «فهذه الذنوب مع صحّة التوحيد خير من فساد التوحيد مع هذه الذنوب»[١] انتهىٰ.

(١) **ودليل هذا قوله تعالىٰ**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ =

هذا وجماعة أخرىٰ تنتمي إلىٰ الدعوة - لكنَّها تسير علىٰ منهج آخر يختلف أيضًا عن منهج الرسل، فلا تعير العقيدة أهميّة، وإنّما تهتم بجانب التعبّد وممارسة بعض الأذكار علىٰ نهج الصوفيّة، ويركّزون علىٰ الخروج والسياحة، والذي يهمهم هو استقطاب النَّاس معهم دون نظر إلىٰ عقائدهم، وهذه كلها طرق مبتدعة؛ تبدأُ من حيث انتهت دعوة الرسل، وهي بمثابة من يعالج جسدًا مقطوع الرأس؛ لأنَّ العقيدة من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، والمطلوب من هذه الجماعات أن تصحح مفاهيمها بمراجعة الكتاب والسنَّة لمعرفة منهج

= ﴿ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقد تعجب حين تعلم أنا قد وجدنا لبعض قادة هذه الجماعة كتبًا يؤيدون فيها التبرك بالأضرحة والتوسل بالصالحين.

الرسل في الدعوة إلىٰ الله؛ فإنَّ الله سبحانه أخبر أنَّ الحاكميَّة والسلطة - التي هي محور دعوة هذه الجماعة التي أشرنا إليها - لا تتحقق إلّا بعد تصحيح العقيدة بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥].

وهؤلاء يريدون قيام دولة إسلاميَّة قبل تطهير البلاد من العقائد الوثنيَّة؛ المتمثلة بعبادة الموتىٰ والتعلق بالأضرحة بما لا يختلف عن عبادة اللّات والعزَّىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ، بل تزيد عليها أنَّهم يحاولون محالًا:

ومن طلب العلا من غير   أضـاع العمـر في طلـب

إن تحكيم الشريعة وإقامة الحدود وقيام الدولة الإسلامية واجتناب المحرمات وفعل الواجبات، كل هذه الأمور من حقوق التوحيد ومكملاته، وهي تابعة له، فكيف يعتنىٰ بالتابع ويهمل الأصل؟

وإنني أرىٰ أن ما وقع لتلك الجماعات من مخالفة لمنهج الرسل في طريقة الدعوة إلىٰ الله، إنما نشأ من جهلهم بهذا المنهج، والجاهل لا يصلح أن يكون داعية؛ لأن من أهم شروط الدعوة العلم؛ كما قال تعالىٰ عن نبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾. فأهم مؤهلات الداعية العلم(١).

(١) وبعض هؤلاء الذين ينتسبون للدعوة إلىٰ الإسلام لو سألت أحدهم: =

ثم إننا نرىٰ هذه الجماعات المنتسبة إلىٰ الدعوة مختلفة فيما بينها؛ فكل جماعة تختط لنفسها خطة غير خطة الجماعة الأخرىٰ، وتنتهج غير منهجها، وهذه نتيجة حتمية لمخالفة منهج الرسول ﷺ؛ فإن منهج الرسول واحد لا انقسام فيه ولا اختلاف عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾. فأتباع الرسول ﷺ علىٰ هذه السبيل الواحدة لا يختلفون.

وإنما يختلف من خالف هذه السبيل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ولما كان أمر هذه الجماعات المخالفة والمختلفة يشكل خطرًا علىٰ الإسلام؛

= ما هو الإسلام؟ وما هي نواقضه؟ لم يستطع أن يجيب إجابة صحيحة، فكيف جاز لمثل هذا أن يكون داعية؟!!!

قد يصُدّ عنه من أراد الدخول فيه؛ كان لا بد من بيانه وبيان أنه ليس من الإسلام في شيء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ولأن الإسلام يدعو إلىٰ الاجتماع علىٰ الحق؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، لما كان بيان ذلك واجبًا وكشفه لازمًا؛ قام جماعة من العلماء من ذوي الغيرة والتحقيق للتنبيه علىٰ أخطاء تلك الجماعات، وبيان مخالفتها في الدعوة لمنهج الأنبياء؛ لعلها ترجع إلىٰ صوابها؛ فإن الحق ضالة المؤمن، ولئلا يغتر بها من لا يعرف ما هي عليه من خطأ، ومن هؤلاء العلماء الذين تولوا هذه المهمة العظيمة عملًا بقول النبي ﷺ: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**». قلنا:

لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

من هؤلاء الذين بينوا ونصحوا فضيلة الشيخ الدكتور ربيع بن هادي المدخلي في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو بعنوان «**منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله فيه الحكمة والعقل**»؛ فقد بين - وفقه الله وجزاه خيرًا - منهج الرسل في الدعوة إلىٰ الله كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، وعرض عليه منهج الجماعات المخالفة؛ ليتضح الفرق بين منهج الرسل، وتلك المناهج المختلفة والمخالفة لمنهج الرسل، وناقش تلك المناهج مناقشة علمية منصفة مع التعزيز بالأمثلة والشواهد؛ فجاء كتابه - والحمد لله - وافيًا بالمقصود، كافيًا لمن يريد الحق، وحجة علىٰ من عاند وكابر، فنسأل الله أن يثيبه علىٰ

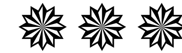
عمله، وينفع به، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه.

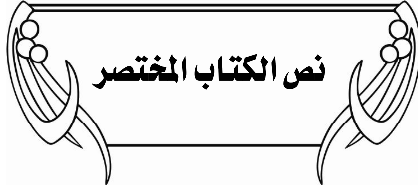
وكتبه

صالح بن فوزان

الأستاذ بجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلاميَّة





إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره الكافرون.

❊ **وبعد**: فإن الدافع لاختيار هذا الموضوع عدة أمور، من أهمها:

أولًا: أنَّ الأمة الإسلامية اختلفت في مناحٍ شتىٰ

عقدية وغيرها، وتفرقت بها السبل؛ فنزل بها من الويلات - نتيجة لهذا التفرُّق ولعدم الاحتكام فِي قضايا الخلاف إِلَىٰ كتاب ربهم وسنّة نبيهم -؛ ما لا يعلم مداه وفداحته إلا الله؛ من تمزق صفوفهم، وتأجج نيران الخلاف والخصومات فيما بينهم، ثم تغلّب أعداء الإسلام علىٰ أوطانهم واستباحتهم لبيضتهم واستعبادهم واستذلالهم.

ثانيًا: حدوث تيارات فكريّة برزت فِي الساحة الإسلاميّة بطرق ومناهج؛ لإصلاح حال الأمّة وإنقاذها؛ منها: السياسي، ومنها: الفكري، ومنها: الروحي.

وكل واحد من هذه التيارات يدّعي ممثلوه أنّه المنهج الإسلامي الحق الذي يجب اتّباعه، والذي لا ينقذ الأمّة سواه.

ومن ثَمَّ وَجَبَ بيان منهج الأنبياء فِي الدعوة إِلَىٰ الله

فِي ضوء الكتاب والسنّة، وبيان مزاياه التي لا يشارك فيها، وبيان ضرورة اتباعه وحده؛ لأنّه الطريق الأوحد الذي يوصل إِلَىٰ الله، ويكسب رضاه، وهو السبيل الأوحد لإنقاذ الأمة، والموصل إِلَىٰ السيادة في الدنيا والسعادة فِي الآخرة.

وبعد:

فإنّ الله تعالَىٰ الخالق البارئ المصور العليم الحكيم؛ قد خلق هذا الكون العظيم ودبّره ونظّمه بعلمه المحيط وحكمته البالغة وقدرته الشاملة؛ لحكم جليلة وغايات نبيلة بعيدة كل البعد عن العبث والباطل واللَّعب.

قال تعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وخلق الجن والإنس وبيَّن الحكمة العظيمة والغاية الكريمة التي خلقهم من أجلها.

قال تعالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

وقال تعالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: لا يؤمر ولا ينهىٰ!

وقال تعالَىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

فأخبر تعالَىٰ أنّه ما خلقهم إلا للابتلاء؛ ليتبيَّن أيّهم أحسن عملًا بانقياده لمنهج الله واتباعه لرسل الله.

وبيّن لهم أنّه قد وفّر وهيّأ لهم كل الأسباب التي تساعدهم علىٰ القيام بمهمَّتهم العظيمة، وحذّرهم من الانحراف عن هذه الغاية، والتنكّر لهذه النعم الجليلة.

وقد منح الله سبحانه الإنسان نعمة العقل الذي يرفعه إلَىٰ مستوىٰ التكاليف الإلهيّة، ويؤهله لإدراكها وفهمها، وزوَّده بالفطرة التي توائم ما يأتي به رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – من الوحي الكريم ومن الدين الحق؛ قال تعالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلّا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يُمجسانه، كما**

تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟».

ثمّ يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية.

ثم لم يكلهم الله إلىٰ ما آتاهم من فطرة وعقل، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب لتبين لهم الحق من الباطل؛ حتىٰ لا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل.

* وهناك أسس ثلاثة كانت هي المرتكز في دعوة كل الرسل، وهي:

١) التوحيد.

٢) النبوات.

٣) المعاد.

وقد عُنيت بها كتب الله بأجمعها، واتّفقت عليها الشرائع السماويّة بأسرها.

وأهمّ هذه الأسس الثلاثة وأصل أصولها هو: توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والذي تضمّنه القرآن بأنواعه الثلاثة المشهورة، فإنّ القرآن:

١) إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو: التوحيد العلمي الخبري.

٢) وإمّا دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

٣) وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته؛ فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته.

٤) وإمّا خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل

بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء التوحيد.

٥) وإمّا خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلّ بهم في العقبىٰ من العذاب؛ فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كلّه فِي التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم(١).

* وكان الجانب الأهم من دعوات الرسل قاطبة؛ هو دعوة الناس إلَىٰ توحيد الألوهية:

قال تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٠).

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالَىٰ - بعد أن ذكر قصص عدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام -: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

تلك هي دعوة الأنبياء جميعًا، الدعوة إلَىٰ التوحيد، وهذا هو السبيل الوحيد الذي يجب أن يُسلك في دعوة الناس إلَىٰ الله، وقد أخبر الله تعالىٰ عن بعض أفراد الأنبياء العظام كيف واجهوا أقوامهم، وإذا بهم يسيرون طبق المنهج الذي قرره الله لجميعهم، لا تند عنه دعوة أحد منهم.

وقال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم

الأمثل، فالأمثل»[1].

(١) «أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠٢)، ٥٦- باب: ما جاء في الصبر علىٰ البلاء، حديث (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤)، ٢٣- باب الصبر علىٰ البلاء، حديث (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/ ٢٢٨)، حديث (٢٧٨٦)، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) كلهم من طريق عاصم بن أبي النجود - وهو صدوق له أوهام -، عن مصعب بن سعد، قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي تصحيح الترمذي له نظر، وكأنه لاحظ في الحكم شواهده؛ فإن له شواهد:

١- عن أبي سعيد الخدري، أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤)، ٣٢- باب الصبر علىٰ البلاء، حديث (٤٠٢٤)، قال في الزوائد: إسناده صحيح. نقلًا عن محمد فؤاد.

٢- من حديث فاطمة بنت اليمان، أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٩).

٣- من حديث أبي هريرة أشار إليه الترمذي بقوله: «وفي الباب عن أبي هريرة، وأخت حذيفة». بعد إخراجه حديث سعد». اهـ كلام شيخنا الربيع.

=

فالأمثل ثم الأمثل هم الصالحون السائرون في

=

قلت: وتتمة الحديث: «**يبتلىٰ الرجل حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابتُلي عَلَىٰ حَسَبِ دِينِه، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خطيئة**».

وصحَّحه الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيحة (١٤٣)، وقال بعد أن ذكر بعض شواهده: «وفي هذه الأحاديث دلالة صريحة علىٰ أن المؤمن كلما كان أقوىٰ إيمانًا؛ ازداد ابتلاءً وامتحانًا، والعكس بالعكس، ففيها رد علىٰ ضعفاء العقول والأحلام الذين يظنون أن المؤمن إذا أصيب ببلاء كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها؛ أن ذلك دليل علىٰ أن المؤمن غير مرضي عند الله تعالىٰ! وهو ظن باطل، فهذا رسول الله ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشد الناس حتىٰ الأنبياء بلاءً، فالبلاء غالبًا دليل خير، وليس نذير شر؛ كما يدل علىٰ ذلك أيضًا الحديث الآتي: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**».

مناهجهم في الدعوة إلىٰ الله، والداعون إلىٰ ما دعوا إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، ونبذ الشرك بما سواه، وينالهم من الأذىٰ والبلاء مثل ما أصاب أسوتهم من الأنبياء.

ومن أجل هذا ترىٰ كثيرًا من الدعاة يحيدون عن هذا المنهج الصعب، والطريق الوعر؛ لأن الداعي الذي يسلكه سيواجه أمه وأباه وأخاه وأحبابه وأصدقاءه، وسيواجه المجتمع وعداوته وسخرياته وأذاه، يحيدون إلىٰ جوانب من الإسلام لها مكانتها ولا يتنكر لها من يؤمن بالله، ولكن هذه الجوانب ليس فيها تلك الصعوبة والشدة والسخرية والأذىٰ، خصوصًا في المجتمعات الإسلامية؛ فإن سواد الأمة الإسلامية يلتفون حول هذا اللون من الدعاة، ويحيطونهم بهالة من التبجيل والتكريم

لا سخرية ولا أذًىٰ، اللهم إلا إذا تعرضوا للحكام وهدَّدوا كراسيهم؛ فإنهم حينئذ يقمعونهم بكل شدة كأحزاب سياسية تناوئ الحكام وتهدد عروشهم، والحكام في هذا الباب لا يحابون قريبًا ولا حميمًا ولا مسلمًا ولا كافرًا.

علىٰ كل حال نقول لهؤلاء الدعاة مهما شنشنوا وطنطنوا ومهما رفعوا أصواتهم باسم الإسلام: اربعوا علىٰ أنفسكم؛ فإنكم خرجتم عن منهج الله وصراطه المستقيم اللاحب، الذي مرت به مواكب الأنبياء وأتباعهم، في الدعوة إلىٰ توحيد الله وإخلاص الدين له، ومهما تفلسفتم ورفعتم عقيرتكم باسم الإسلام؛ فإنكم عن منهج الأنبياء الذي سنَّه الله لناكبون، بل يا ويل هؤلاء الدعاة إن أصروا علىٰ المضي فيما ابتدعوه من مناهج، وحاربوا منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ توحيد

الله، تحت شعارات براقة تخلب ألباب البلهاء والجهلاء بمنهج الأنبياء.

* وسوف نكتفي بعرض دعوات خمسة من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، مما يجلي لنا الدعوة الحق مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك:

١) فأولهم: نوح، أبو البشر الثاني، وأول رسول إلى أهل الأرض:

عاش هذا النبي العظيم ألف سنة إلّا خمسين عامًا، لبثها فِي دعوة قومه إِلَىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له، لا يكلّ ولا يملّ، ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا.

قال تعالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ

ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا

كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [نوح: ١-٢٥].

فهاهنا قصَّ الله علينا خلاصة دعوة هذا النبي الكريم التي استغرقت ألف سنة إلّا خمسين عامًا، إنها دعوة جادة إِلَىٰ توحيد الله وعبادته وحده، فِي جهد دائب؛ سرًّا وجهارًا، وترغيبًا وترهيبًا، ووعدًا ووعيدًا، واحتجاجًا واستدلالًا بالأدلة العقلية والحسية، وكل ذلك لم يُجْدِ فيهم نفعًا، ولا دفعهم إِلَىٰ استجابة، بل أصروا علىٰ التشبث بِمعبوداتِهم الباطلة، فكانت النتيجة الهلاك والدمار فِي الدنيا، وفِي الآخرة الخلود فِي عذاب النار.

❁ وهنا نتساءل لماذا يستمر هذا النبي العظيم كل

هذه الآماد الطويلة، ويبذل هذه الجهود الكبيرة، دون كلل أو ملل، يدعو إِلىٰ التوحيد؟!!

❁ ولِماذا يمدحه الله ويثني عليه الثناء العاطر، ويُخلد ذكره ويجعله فِي عداد الرسل أولي العزم؟ لِماذا يقره الله علىٰ سلوك هذا المنهج فِي الدعوة طوال ألف سنة إلّا خمسين عامًا؟!

❁ هل دعوة التوحيد تستحق كلَّ هذه العناية والإكبار؟ وأن يكلف أعظم الرسل وأعقل البشر أن يجعل منه أسوة فِي دعوته وصبره؟

❁ هل هذا المنهج وتَحديد هذا المنطلق لِهذا النبي الكريم؛ مجانب للحكمة والعقل، أو أنه عين الحكمة ومقتضىٰ العقل الواعي الرجيح؟

* **الجواب الْمُنْصِف القائم علىٰ العقل والحكمة:** أن دعوة التوحيد ومحاولة القضاء علىٰ الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل هذا، وأنّه عين الحكمة ومقتضىٰ الفطرة والعقل، وأن الواجب علىٰ كل الدعاة إلىٰ الله أن يكرسوا كلَّ جهودهم وطاقتهم لتحقيقه ونشره في أرض الله كلها، وأن يتعاونوا ويتكاتفوا ويتحدوا، ويصدق بعضهم بعضًا، كما كان الرسل دعاة التوحيد، ويبشر سابقهم بلاحقهم، ويصدق لاحقهم سابقهم، ويؤيد دعوته ويسير في مضماره.

يجب أن نعتقد أنه لو كان هناك منهج أفضل وأقوم من هذا المنهج لاختاره الله لرسله وآثرهم به.

فهل يليق بمؤمن أن يرغب عنه ويختار لنفسه منهجًا سواه، ويتطاول علىٰ هذا المنهج الرباني وعلىٰ دعاته؟!!

٢) وثانيهم: أبو الأنبياء وإمام الموحدين الحنفاء إبراهيم خليل الله، الذي أمر الله سيد المرسلين وخاتم النبيين، وأمته، باتباعه، والائتساء بدعوته، والاهتداء بهديه ومنهجه[1].

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ

(١) إشارة إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].
وإلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

[الأنعام: ٧٤ – ٧٩]

دعوة حارة قوية متدفقة إِلَىٰ توحيد الله، وإخلاص الدين له ونبذ الشرك ورفضه، تبدأ بالأسرة وتمتد إِلَىٰ الأمة، تحارب الشرك والأصنام، وتزلزل الشرك بالكواكب.

ويسلك خليل الله أقوم الطرق فِي المناظرة والمحاجّة؛ لإقامة حجة الله ودحض الشرك وباطله وشبهه.

فالتعبير بالأصنام تحقير لآلهتهم المزعومة المصطنعة، وتسفيه لأحلامهم، ورصده للكواكب المذكورة واحدًا تلو الآخر، وهي تغيب وتأفل عنهم؛ ليأخذ من حالها

البرهان الواضح علىٰ بطلان ما يزعمون من ألوهيتها.

فمن يرعاهم ويدبر شؤونهم وشؤون هذا الكون حين غيابها؟! وإذن فعليهم أن يرفضوا هذه الآلهة المزعومة الباطلة ويكفروا بها، ويتجهوا إلىٰ إلههم الحق، الذي فطر السموات والأرض، والذي لا يغيب ولا يحول، ويعلم جميع أحوالهم ومطلع علىٰ حركاتهم وسكناتهم، ويرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم.

وقال تعالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤١-٥٠].

* دعوة حارّة إِلَىٰ التوحيد، قائمة علىٰ العلم والمنطق والعقل وعلىٰ الخلق القويم، وتهدي الضال إلىٰ الصراط المستقيم يقابلها تعصُّب أعمىٰ يقوم علىٰ الهوىٰ والجهل والعناد والمكابرة، وإلّا فكيف يعبد ويخضع لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئًا؟

* إن علم التوحيد – أيها القارئ – هو العلم الذي يعتز به جميع الأنبياء، وبه يصولون علىٰ الباطل والجهل والشرك.

فالجهل بهذا العلم – علم الأنبياء الهادي إِلَىٰ الحق والمنقذ من الضلال والشرك – هو الجهل المميت، والسم القاتل الذي يقتل العقل والفكر.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣].

وبعد هذه الجولات القوية الواعية يقوم بها إبراهيم ﷺ فِي ميدان الدعوة إلىٰ الله – دعوة الأسرة والأمة –، التي أقام فيها علىٰ أبيه وقومه الحجج الدامغة، واجه بهذه الدعوة العظيمة ذلك الحاكم الجبار الطاغية المتأله بكل قوة وشجاعة.

* **قال تعالَىٰ:** ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ

فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لقد دعا إبراهيم ﷺ هذا الطاغية المتأله إلىٰ توحيد الله والإيمان بربوبيته وألوهيته؛ فطغىٰ واستكبر عن الإجابة إلىٰ توحيد الله، وأبىٰ التنازل عن دعوىٰ الربوبية.

فحاجّه إبراهيم وناظره هذه المناظرة النيّرة البراهين الواضحة المعالم؛ قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة.

فقال المتجبر: أنا أحيي وأميت، أي: أقتل من أردت قتله، وأستبقي من أردت إبقاءه.

وهذا الجواب فيه تمويه وتضليل للأغبياء وحَيْدة عن الجواب؛ لأن قصد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن ربه

ينشئ الحياة فِي الإنسان والحيوان والنبات من العدم، ويردها إلَىٰ الأموات بقدرته، وأنّه هو الذي يميت الناس والحيوانات بآجالها بأسباب ربطها وبغير أسباب، فلما رآه إبراهيم يموه ويدجل تدجيلًا ربما انطلىٰ علىٰ الهمج، قال - ملزمًا له بتصديق قوله، إن كان كما يزعم -: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ أي: وقف متحيرًا مشدوهًا منقطع الحجة، قد ألقم حجرًا وأخرس لسانه وزهق باطله؛ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وفِي هذا درس لمن ألقىٰ السمع وهو شهيد، إنها دعوة إلىٰ التوحيد، تمثل قمة الإخلاص والحكمة والعقل، وتأتي البيوت من أبوابها، وتنطلق من حيث أراد الله، لا مصارعة علىٰ الملك، ولا منافسة علىٰ الحكم.

ولو كان هدف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الوصول إلَىٰ الحكم؛ لسلك منهجًا غير هذا المنهج، ولوجد من يلتف حوله ويصفق له.

قال تعالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ

هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٧٠].

آتىٰ الله إبراهيم رشده علىٰ علم بأنه أهل لذلك؛ فهذا النبي الحكيم الرشيد واجه فسادًا فِي العقيدة، وفسادًا فِي الحكم، أمة انحط تفكيرها وضلت عقولها؛ فعبدت الأصنام من الأخشاب والأحجار والكواكب، وتحكمها

حكومة فاسدة، يقودها جبّار متأله فأسلسوا له القياد.

* فمن أين يبدأ بالإصلاح يا ترىٰ؟

أيبدأ بمصاولة الحاكم لأنه قطعًا يحكم بغير شريعة الله ويحكم بقوانين وتشريعات جاهلية، بل ويدعي الربوبية جهارًا؟ أو يبدأ بإصلاح العقيدة عقيدة الأمة والحكومة؟ القرآن يُحدِّثنا عن هذا النبي الرشيد أنه بدأ بإصلاح العقيدة، أي الدعوة إِلَىٰ توحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده ومحاربة الشرك والقضاء عليه وعلىٰ أسبابه واقتلاعه من جذوره، وقد جادلهم فِي هذا المجال وجادلوه، فدمغهم بالحجج القاهرة والبراهين الظاهرة؛ حتىٰ ألجأهم إِلَىٰ الاعتراف بالتعصُّب الأعمىٰ والجمود القاتل علىٰ تقليد الآباء: ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

فلما رأىٰ إبراهيم أهواءً جامحة وعقولًا متحجرة؛ دبَّر

لَهُم خطة حكيمة لتحطيم آلهتهم؛ مما أثار الحكومة والشعب ضده، واستدعوه للمحاكمة العلنية، ووجهوا إليه الاتهام: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؛ فأجابهم بأسلوب تهكمي: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾.

فكان هذا الجواب المفحم كالصاعقة العنيفة هوت علىٰ رءوسهم المخبولة، ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾.

ثم لما أعوزهم سلاح الحجة لجئوا إِلَىٰ القوة، سلاح كل عاجز عن الحجة في كل زمان ومكان؛ ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، ونَجَّىٰ الله خليله إبراهيم ورد الله كيد الكافرين الخاسرين فِي نحورهم؛ ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا

فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾.

وكان فِي نجاة إبراهيم من تلك النار العظيمة بعد أن حَوَّلها الله بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم؛ آية عظيمة من أعظم آيات الله علىٰ نبوته وصدقه، وصدق ما جاء به من التوحيد، وبطلان ما هم عليه من الشرك والضلال.

وكافأ الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ هذه الدعوة الحكيمة وعلىٰ هذا الجهاد والتضحية الرائعة؛ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١ - ٧٣].

٣) **ثالثهم**: يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم، الذي أنزل الله فِي شأنه سورة طويلة تقص لنا حياته

الكريمة، ومراحلها من طفولته إِلَىٰ موته، وكيف تقلبت به الأحوال، وما واجه من صعاب، فتلقاها بقوة النبوة وصبرها وحكمتها وحلمها.

عاش هذا النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي قصور الفراعنة، وعرف مفاسد الحكم والحكَّام عن كثب، وذاق من ويلاتهم كيدًا وظلمًا واضطهادًا وسجنًا، وعاش بين ظهراني أمة وثنية تعبد الأصنام والأبقار والكواكب؛ فمن أين ينطلق للإصلاح؟ ومن أين تكون نقطة البداية؟

* هل يبدأ فِي الدعوة إِلَىٰ الله وهو مسجون ظلمًا، يشاركه فِي السجن مظلومون مثله من إثارتهم وتهييجهم علىٰ الحكام الظَّلَمَة المستبدين - وهذا منطلق سياسي لا شك فيه، والفرصة متاحة أمامه -، أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤه الكرام وعلىٰ رأسهم إبراهيم خليل

الله، ومن حيث انطلق جميع رسل الله؟! لا شك أن طريق الإصلاح الوحيد في كل زمان ومكان؛ هو طريق الدعوة إلىٰ العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

فقال لصاحبيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

وبعد هذا البيان الواضح: يؤكد دعوته وحجته بقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[١]. ثم يفسر هذه الحاكمية بتوحيد الله

(١) قد انحرف كثير من السياسيين المعاصرين بمدلول الآية الأساسي – وهو إخلاص العبادة لله وحده – إلىٰ مدلول سياسي هو إقامة الدولة التي يزعمون أنها ستطبق شريعة الله في الأرض بالنيابة =

وعبادته وحده ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾. [يوسف: ٤٠]

ويصل يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ أعلىٰ منصب في هذه الدولة[١] وهو يدعو إلىٰ توحيد الله، ويقيم علىٰ دعوته ونبوّته البينات؛ قال تعالىٰ في بيان هذه الأمور: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤) قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ =

عنه، وبالغوا في هذا الاتجاه حتىٰ أنسوا النَّاس المعنىٰ الأصيل للآية، ولا يفهمون منها إلا المعنىٰ الجديد، فلا حول ولا قوّة إلا بالله، وهكذا عاملوا كل أو معظم آيات التوحيد.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الحسبة» (ص ٧): «وكذلك يوسف الصديق كان نائبًا لفرعون مصر – وهو وقومه مشركون –، وفعل من العدل والخير ما قدر عليه، ودعاهم إلىٰ الإيمان بحسب الإمكان».

عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥].

وقال شاكرًا لمولاه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. [يوسف: ١٠١]

ومن فقه سيرة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّ الدعوة إلىٰ التوحيد أمر لا بد منه، وأن الشرك لا هوادة ولا مداهنة في محاربته، مهما كانت ظروف الداعية إلىٰ الله، بل لا يجوز لمسلم إطلاقًا أن يحابي ويداهن في أمره.

فلا يجوز أن يكون المسلم – خصوصًا الداعية – أن يتولَّىٰ منصبًا يُخل بالعقيدة أو يتنافىٰ معها.

وإن قامت دولة الإسلام فلا بد من تطبيق شريعة الله، وإلّا ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

والكفر حينئذ علىٰ ما فصَّله علماء الإسلام من الصحابة وغيرهم؛ قد يكون كفرًا أكبر إذا كان يحتقر شرع الله ويستحل الحكم بغيره، وقد يكون كفرًا أصغر إذا كان يعظِّم شريعة الله ولا يستحل الحكم بغيرها، لكن غلبه هواه؛ فحكم بغير ما أنزل الله.

أمّا إذا كانت دولة الإسلام غير قائمة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وللمسلم أن يتبوأ منصبًا فِي دولة غير مسلمة شريطة أن يقوم بالعدل، وأن لا يطيعهم في معصية الله، ولا يحكم بغير ما أنزل الله، كما فعل نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تبوّأ منصب النيابة عن ملك كافر، وما كان يحكم بشريعته؛ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وكان يقوم بالعدل بين الرعية

ويدعوهم إِلَىٰ توحيد الله.

وفِي هذا ردٌّ حاسم علىٰ من يُهوِّن من أمر عقيدة التوحيد، ويجامل فِي قضية الشرك، وينظر إِلَىٰ دعاة التوحيد بعين الاحتقار والازدراء، ويربأ بنفسه ويشمخ بأنفه أن يهبط إِلَىٰ مستوىٰ دعاة التوحيد - وهو من دهاة السياسة -، وهل يفلح قوم هذا موقفهم من دعوة الأنبياء، إلّا أن يتوبوا عمّا هم فيه إِلَىٰ الله توبة نصوحًا؟

٤) **رابعهم**: موسىٰ كليم الله، القوي الأمين، نرىٰ دعوته تتجه إِلىٰ التوحيد وتحمل في طيّاتها أنوار الهداية والحكمة.

لقد تربىٰ موسىٰ ودرج في قصور أعظم طاغية متألِه، وشاهد من ألوان الفساد والكفر والاستبداد فِي قصور الحكم ما يصعب احتماله، ورأىٰ ما نزل بقومه

بني إسرائيل من استعباد واستذلال ما فاق كل ظلم عرفته البشرية، قال تعالَىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

❋ وكان قوم فرعون أهل شرك ووثنية؛ فكيف كان بدء دعوة موسىٰ؟

❋ هل اتجهت إِلَىٰ المطالبة بحقوق بني إسرائيل والمصارعة علىٰ الحكم، وانتزاع السلطة من أيدي الطغاة وعلىٰ رأسهم فرعون المتأله؟

والجواب: لقد كانت دعوة موسىٰ كغيرها من دعوات آبائه وإخوانه من الأنبياء، لقد لقّنه ربه أصل التوحيد، واصطفاه لحمل رسالته والقيام بعبادته.

قال تعالىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٩ – ١٥].

هكذا فِي مفتتح رسالته تملىٰ عليه عقيدة التوحيد، ثم يُكلَّف بالدعوة إليها؛ فيرسله الله إِلَىٰ فرعون، ويبيّن له طريق الدعوة وأسلوبها الحكيم الذي يواجه به فرعون؛ قال تعالَىٰ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ – ١٩].

ويشد عضده بأخيه هارون مبالغة فِي إقامة الحجة،

ويعلمهما الرفق واللّين فِي الدعوة؛ فإن ذلك أقرب الطرق إلىٰ هداية من يريد الله هدايته؛ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

فنفّذا أمر ربهما؛ فلم يستجب فرعون لهذه الدعوة الهادئة الحكيمة؛ فبرهن موسىٰ علىٰ نبوّته وصدق رسالته بآيات كبرىٰ؛ لكن الطاغية فرعون زاد طغيانًا وتكذيبًا؛ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

* فماذا كان موقف موسىٰ من هذه الانتهاكات البشعة والَّتِي تَجاوزت حدود الوحشيَّة والْهمجيَّة؟! إنّه الثّبات علىٰ العقيدة، والصبر الجميل، والاستعانة بالله في مواجهة هذه الشدائد، ثمَّ انتظار العاقبة الطيّبة؛ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ

ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ولمّا اشتدّ البلاء علىٰ بني إسرائيل؛ طلب نبي الله من فرعون أن يترك لبني إسرائيل حريّة الهجرة؛ ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧].

إنّها لدعوة سامية إلىٰ توحيد الله، فيها النور والحكمة، وفيها أقوىٰ أنواع الصبر فِي تحمّل الأذىٰ وفِي مواجهة الطغيان والكبرياء، وفيها معالجة المواقف الصعبة بالحكمة والصبر، مع قوّة الأمل فِي الله فِي نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين.

٥) **والخامس**: سيد الأنبياء وخاتمهم محمد بن عبد الله، صاحب أعظم رسالة وأكملها وأشملها، الذي

أرسله الله رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إِلَىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ما ترك خيرًا إلا دلَّ أمَّته عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرها منه.

❊ بماذا بدأ هذا النبي العظيم دعوته؟

بدأ بما بدأ به كلّ الأنبياء، بدأ بعقيدة التوحيد، والدعوة إِلَىٰ إخلاص العبادة لله وحده، فدعا قومه إلىٰ شهادة: «أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّدًا رسول الله».

فقال المستكبرون منهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٥، ٦].

واستمرَّ داعيًا إلىٰ هذا المبدأ الأسمىٰ والمطلب الأعلىٰ طيلة العهد المكي من رسالته ثلاثة عشر عامًا، لا يكلُّ ولا يملُّ، صابرًا علىٰ كلّ ألوان الأذىٰ؛ في سبيل نشره.

وأمره الله أن يقوم بدعوة النّاس جميعًا إلىٰ تحقيق هذا المبدأ والنّهوض به.

قال تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وقال تعالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال تعالَىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

[الأعراف: ١٥٨]

والآيات فِي هذا كثيرة، أمّا السنّة ففيها أيضًا الشيء الكثير الدّالّ علىٰ افتتاح رسول الله ﷺ دعوته بالتّوحيد واختتامها بذلك، واستمراره فيما بين ذلك طوال حياته ﷺ:

١- فعن عمرو بن عبسة السُّلَمِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كنت وأنا في الجاهلية أظنّ أنّ النّاس علىٰ الضلالة، وأنّهم ليسوا علىٰ شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكّة يخبر أخبارًا؛ فقعدت علىٰ راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جرآء عليه قومه فتلطفت؛ حتىٰ دخلت عليه بمكّة، فقلت له: ما أنت؟

قال: «**أنا نبي**». فقلت: وما نبي؟

قال: «**أرسلني الله**». فقلت: وبأيّ شيء أرسلك؟

قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّد الله لا يشرك به شيء**». فقلت: ومن معك علىٰ هذا؟

قال: «**حرٌّ وعبدٌ**». قال: ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن به... ». الحديث[1].

٢- وكان مما قاله جعفر بن أبي طالب للنجاشي - حينما سأله عن هذا الدين الذي فارقوا به قومهم -: أيّها الملك، كنّا قومًا أهل جاهليّة نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إِلَىٰ الله لنوحده ونعبده ونَخلع ما كنّا نَحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٦٩)، ٦- كتاب: صلاة المسافرين، ٥٢- باب: إسلام عمرو بن عبسة، حديث (٢٩٤)، وأحمد فِي المسند (٤/ ١١٢).

وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا ... قال: فعدَّد عليه أمور الإسلام...». الحديث[1].

٣- وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان - في مدّة صلح الحديبية - عن حال رسول الله ﷺ؛ قال لأبي سفيان: ما يأمركم؟ قال أبو سفيان: قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة»[2].

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٠٢)، (٥/ ٢٩٠) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه البخاري، ١- كتاب بدء الوحي، باب (٧)، حديث (٦)، وهو حديث طويل.

فهذه الأحاديث توضح لنا دعوة رسول الله فِي العهد المكي والمدني.

ولقد عُذِّب أصحابُ رسول الله ﷺ أشد ألوان العذاب؛ من أجل تمسكهم بالعقيدة وإخلاص العبادة لله وحده، ونبذ الشرك والكفر.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد؛ فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله تعالىٰ بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم فِي الشمس، فما منهم من أحد إلا وأتاهم علىٰ ما أرادوا، إلا بلالًا فإنه هانت عليه نفسه فِي الله، وهان علىٰ قومه؛ فأعطوه الولدان، فجعلوا

يطوفون به فِي شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد»[1].

وتُعذَّب سمية حتىٰ الموت من أجل عقيدة التوحيد، لا لأنها كانت زعيمة سياسية، فعن مجاهد قال: «أول شهيدة فِي الإسلام سمية والدة عمار، أما أبو جهل فطعنها بحربة فِي قُبُلها»[2].

وبعد أن هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إِلَىٰ المدينة، وقامت دولة الإسلام علىٰ كواهل المهاجرين والأنصار، وعلىٰ أساس التوحيد، ظل الاهتمام بالتوحيد علىٰ أشده،

(١) أخرجه الحاكم فِي المستدرك (٣/ ٢٤٨)، وصححه وذكره الذهبي فِي سير أعلام النبلاء (١/ ٣٤٨)، وقال: وله إسناد صحيح. وانظر: الاستيعاب (١/ ١٤٥، ١٤٦)، والحلية لأبي نعيم (١/ ١٤٩) (١) (١/ ٣١٨).

(٢) الطبقات لابن سعد (٨/ ٢٦٤، ٢٦٥) بإسناد صحيح إِلَىٰ مجاهد.

والآيات القرآنية تنزل به، والتوجيهات النبوية تدور حوله.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بكل هذا؛ فكان يبايع عليها عظماء الصحابة فضلًا عن غيرهم بين الفينة والفينة.

فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كان رسول الله ﷺ في مجلس، فقال: «**تبايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم.** والآية التي أخذت علىٰ النساء ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ **فمن وفىٰ منكم فأجره علىٰ الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فهو إلَىٰ الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه**»[1].

حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كنا

(١) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب (١١)، ومسلم، ٢٩- كتاب الحدود، ١٠- باب الحدود كفارات لأهلها، حديث (٤١- ٤٤).

عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**». وكنّا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟** »، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**». قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله؛ فعلام نبايعك؟! قال: «**علىٰ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا** – وأسرّ كلمة خفية –، **ولا تسألوا الناس شيئًا**»[1].

وكذلك بايع النساء، قال تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

(١) أخرجه مسلم ١٢- كتاب الزكاة، ٣٥- باب المسألة للناس، حديث (١٠٨).

وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

٤- وكان يرسل دعاته ومعلميه وقضاته وأمراءه إِلَىٰ الملوك والجبابرة والأقطار المختلفة بدعوة التوحيد.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **خادم رسول الله** ﷺ: أن نبي الله ﷺ كتب إِلَىٰ كسرىٰ[1]، وقيصر، وإِلَىٰ النجاشي، وإِلىٰ كل جبار، يدعوهم إِلَىٰ الله، وليس بالنجاشي الذي صَلَّىٰ عليه النبي ﷺ[2].

---

(١) وانظر كتابه إِلَىٰ كسرىٰ ملك الفرس فِي «البداية والنهاية» (٤/ ٣٦٩)، بقريب من كتاب قيصر.

(٢) أخرجه مسلم حديث (٧٥)، وغيره من حديث أنس، وأحمد (٣/ ٣٣٦)، من حديث جابر بلفظ: «وكتب رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس إِلَىٰ كسرىٰ وقيصر وإِلَىٰ كل جبار».

يوضح ذلك نص كتابه إِلَىٰ قيصر، وأن هدفه الدعوة إِلَىٰ التوحيد، ونصه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من محمد عبد الله ورسوله إِلَىٰ هرقل عظيم الروم، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين[1]، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

---

(١) **الأريسيون**: الفلاحون، ويقال لهم: الأكّارون، والمراد: أتباعه من الضعفاء.

مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]»[١].

وبعث معاذًا إلىٰ اليمن أميرًا وقاضيًا ومُعَلِّمًا، وكان من ضمن ما قال ﷺ له: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله،** - وفِي رواية: **إلَىٰ أن يوحدوا الله** - **وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك...**» إلخ الحديث[٢].

(١) كلاهما حديث واحد أخرجه البخاري، ١- كتاب بدء الوحي، باب (٧)، حديث (٦)، وهو حديث طويل اختصرناه، وأحمد (١/ ٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، ٦٤- كتاب المغازي، ٦٠- باب بعث أبي موسىٰ ومعاذ إلَىٰ اليمن قبل حجة الوداع، حديث (٤٣٤٧)، و٩٧- كتاب التوحيد، ١- باب ما جاء فِي دعاء النَّبي ﷺ إلَىٰ توحيد الله تبارك وتعالىٰ، حديث (٧٣٧٢)، ولفظ البخاري هنا: «**فليكن أوَّل ما تدعوهم إلَىٰ أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك...** ». الحديث.
=

ولا يشك أنه كان يوصي كل دعاته وأمرائه وقضاته بمثل هذه الوصية.

٥- وكان رسول الله ﷺ يرشد قواده وجنوده إلىٰ البدء قبل القتال بدعوة الناس إلَىٰ التوحيد، فعن بريدة بن الحصيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا علىٰ سرية أو جيش؛ أوصاه بتقوىٰ الله فِي خاصّة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «**إذا لقيت عدوك من المشركين؛ فادعهم إلَىٰ ثلاث خصال أو خلال، فأيتها أجابوك إليها؛ فاقبل منهم، وكفّ عنهم، ادعهم إلَىٰ الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم**

=
ومسلم، ١- كتاب الإيمان، ٧٥- باب الدعاء إلَىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (٢٩، ٣٠)، ولفظ الأخير: «**فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه عبادة الله** عَزَّوَجَلَّ **فإذا عرفوا ذلك...**». الحديث.

ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلَىٰ دار المهاجرين... فإن هم أبوا فادعهم إلَىٰ إعطاء الجزية، فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله تعالَىٰ، وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم علىٰ حكم الله، فلا تنزلهم؛ فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم علىٰ حكمكم، ثم اقضوا فيهم بعد ما شئتم»[1].

ومثل حديث بريدة حديث النعمان بن مقرن المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- وشرع الجهاد من أجل التوحيد وتطهير الأرض من فتنة الشرك؛ قال تعالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، ٢- باب تأمير الإمام علىٰ البعوث، حديث (٣).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تفسيره» **(٢/ ١٩٤، ١٩٥)**:

«يقول تعالَىٰ ذكره لنبيه ﷺ: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتىٰ لا تكون فتنة، يعنِي: حتىٰ لا يكون شرك بالله، وحتىٰ لا يعبد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان، قال قتادة: «حتىٰ لا يكون شرك»، وساق أسانيده بهذا التفسير إلَىٰ قتادة، ومجاهد، والسدي، وابن عباس.

وقال: «المراد بالدين الذي ذكره الله فِي هذا الموضع: العبادة والطاعة لله فِي أمره ونهيه».

ثم ساق إسناده إلَىٰ الربيع: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ يقول: «حتىٰ لا يعبد إلا الله، وذلك «لا إله إلا الله» عليه قاتل رسول الله ﷺ وإليه دعا».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله. عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه علىٰ الله**».

وقال عمر لأبي بكر حين عزم علىٰ قتال المرتدين بما فيهم مانعي الزكاة: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حَتَّىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالَها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بِحقه، وحسابه علىٰ الله**»[1].

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ؛ لقاتلتهم علىٰ منعها»[2].

(١) أخرجه مسلم، ١ – كتاب الإيمان، باب(٨)، حديث (٣٥).

(٢) البخاري، ٥٦ – الجهاد، ١٠٢ – باب دعاء النبي ﷺ الناس إلىٰ الإسلام =

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوا: لا إله إلا الله. عصموا منِّي دماءهم وأموالَهم إلا بحقها، وحسابهم علىٰ الله**»، ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢][1].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس، حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم**

= والنبوة، وألا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، حديث (٢٩٤٦)، ومسلم، ١ – كتاب الإيمان، الباب (٨)، حديث (٣٣).

(١) أخرجه البخاري، ٢٤ – كتاب الزكاة، ١ – باب وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩)، ومسلم، ١ – كتاب الإيمان، باب (٨)، حديث (٣٣).

علىٰ الله»[١].

ويلاحظ أن أحاديث عمر وأبي بكر وأبي هريرة وجابر، قد اقتصرت علىٰ قضية التوحيد، وذلك لشدة اهتمام الرسول ﷺ بهذه القضية، فهو يُحدِّثهم بها المرة تلو المرة مقتصرًا عليها، تنبيهًا منه لهم علىٰ أهميتها، وإدراكًا منه – صلوات الله وسلامه عليه – أنهم يفهمون أن كل أمور الإسلام من مقتضياتها ومستلزماتها وحقوقها.

وكان أبرز جانب من جوانب الباطل مما أعلن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – عليه الحرب من جهة، واستمات المشركون المكذبون من كل الأمم في

(١) أخرجه البخاري، ٢- كتاب الإيمان، ١٧- باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾، حديث (٢٥)، ومسلم، ١- كتاب الإيمان، باب (٨)، حديث (٣٦).

الدفاع عنه من جهة أخرىٰ؛ هو عبادة الأصنام والأوثان، وقبور الصالحين والأنبياء، وتقديسها وتقديم القرابين لها، وتعلق قلوب البشر – حُكَّامًا ومَحكومين – بها حبًّا ورجاءً وخوفًا وطمعًا في شفاعتها لهم عند الله فِي قضاء مطالبهم.

وكان هذا اللون هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر؛ فكان لا بد من ذكر طرف من حرب رسول الله ﷺ الشعواء لهذا الشرك الأكبر، ممثلة فِي سحق هذه الأوثان فعلًا، وفِي سدِّ كل ذريعة يستدرج بها الشيطان أولياءه من البشر إِلَىٰ عبادتها واتخاذها أندادًا من دون الله باسم الآلهة، أو الأولياء، أو تحت أي شعار مضل.

فمن تلك الحرب التي شنَّها القرآن ورسول مُنَزِّل القرآن ﷺ؛ قول الله تعالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ

ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

فهذا تحقير لمعبوداتهم وأي تحقير، وحرب عليها أي حرب.

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [المائدة: ٩٠]

وقد تقدمت أحاديث: عمرو بن عبسة، وجعفر بن

أبي طالب، وأبي سفيان، وفيها الدعوة إلىٰ خلع عبادة الأنداد من الأوثان وغيرها.

ولقد طاشت ألباب زعماء قريش وضاقت ذرعًا بهجوم الرسول ﷺ علىٰ أوثانها سواء فيما أنزل عليه من قرآن أو في دعوته السرية والعلنية؛ لأن هذا أمر لا هوادة فيه، ودعوته الصادقة تقتضيه.

* **وعن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه، فنهيته. فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت... فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟!!

قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلَّم رسول الله ﷺ

فقال: «**يا عم، إني أريدهم علىٰ كلمة واحدة، يقولونها تدين لهم بها العرب ويؤدي إليهم بها العجم الجزية**»؛ ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة؟ نعم، وأبيك، عشرًا. فقالوا: ما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا بن أخي؟ فقال: «**لا إله إلا الله**».

فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥][1].

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٦٢)، والترمذي، ٤٨- كتاب التفسير، تفسير سورة «ص»، حديث (٣٢٣٢)، وفي إسناده يحيىٰ بن عمارة ويُقال: ابن عباد. ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ: مقبول.

ورواه ابن جرير(٢٣/ ١٦٥) بإسناده إِلَىٰ الأعمش، ثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ورواه من طرق عن الأعمش، عن يحيىٰ بن عمارة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ولم أقف لعباد علىٰ ترجمة، وفي الإسناد ضعف وقد يحتمل التحسين.
=

تلك الحرب كانت حربًا كلامية ونفسية بالنقد اللاذع والتحقير والسخرية، ودمغ المشركين بالضلال والجهل، مع إقامة الحجة عليهم.

وكان من آثار تلك الدعوة أن هدىٰ الله خلقًا كثيرًا، وفتح الله بصائرهم، وعرفوا حقيقة التوحيد ومكانته، وعرفوا حقارة الشرك بالأوثان وغيرها.

ثم لما أصبح للمسلمين شوكة ودولة انتقل رسول التوحيد ﷺ إِلَىٰ خطوة عملية جديدة هي تحطيم الأصنام وتطهير الأرض منها؛ إدراكًا منه لخطورتها؛ فهي المصدر الأساسي والخطير علىٰ الأجيال البشرية من فجر تاريخها
=

* **تنبيه:** في مسند أحمدَ عباد بن جعفر، ولم أقف له علىٰ ترجمة، وقد نص ابن كثير أن أحمد رواه عن عباد غير منسوب، انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٦).

وإلَىٰ أن ينتهي تاريخها كما قال إمام الحنفاء: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾. [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاث مئة وستون نُصُبًا، فجعل يطعنها بعود فِي يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[1].

وعن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: كان بيت

(١) أخرجه البخاري، ٤٦- كتاب المظالم، حديث (٢٤٧٧)، و٦٤- كتاب المغازي، ٤٨- باب أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح، حديث (٤٢٨٧)، ٦٥- كتاب التفسير، تفسير سورة الإسراء، ١٢- باب: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، حديث (٤٧٢٠)، ومسلم، ٣٢- كتاب الجهاد، ٢٣- باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، حديث (٨٧).

فِي الجاهلية يقال له: ذو الخلصة، والكعبة اليمانية، والكعبة الشامية؛ فقال لي النبي ﷺ: «**ألا تريحني من ذي الخَلَصَة؟**».

فنفرت فِي خمسين ومائة فارس من أَحْمَسَ، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأَحْمَسَ.

ولفظه فِي البخاري، ومسلم، وأحمد: «**ألا تريحني من ذي الخَلَصَة؟**».

انظر إلَىٰ هذا التعبير النبوي**!** فكان وجود الأوثان يقض مضجعه، ويقلقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا يقر له قرار ولا يجد راحة.

وأعجب من واقع كثير من الدعاة اليوم يرون أمام أعينهم مظاهر الشرك فلا تحرك فيهم ساكنًا ولا يحسبون لهذا الواقع المر حسابًا، بل الأدهىٰ والأمر أنهم يتذمرون

ممن ينكر ويتألم لهذا الواقع الجاهلي السيئ.

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلىٰ نخلة، وكانت بها العزىٰ، وكانت علىٰ ثلاث سمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**».

فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة - وهم حجبتها - أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزىٰ، يا عزىٰ. فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب علىٰ رأسها، فغمسها بالسيف حتىٰ قتلها، ثم رجع إلَىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: «**تلك العزىٰ**»[1]. وكانت مناة للأوس

(١) أخرجه النسائي في التفسير في الكبرىٰ، كما في تحفة الأشراف (٤/ ٢٣٥) بإسناد حسن، وانظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٩، ٤٣٠).

والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب، فبعث رسول الله ﷺ أبا سفيان ليهدمها، وقيل: «علي بن أبي طالب»[1].

وسألت ثقيف رسول الله ﷺ أن يدع الطاغية وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين؛ فأبىٰ رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبىٰ عليهم، حتىٰ سألوه شهرًا واحدًا بعد قدومهم، فأبىٰ عليهم أن يدعها شيئًا مسمًّىٰ.

وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرياتهم... فأبىٰ رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها»[2].

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٨٥، ٨٦).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، وابن جرير (٣/ ١٤٠)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٢) ط: مكتبة المعارف، وعيون الأثر لابن سيد النَّاس (٢/ ٢٢٨)، وزاد المعاد (٣/ ٤٩٩، ٥٠٠).

وروىٰ البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **فِي قوله:** «اللات والعزىٰ»: «كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج»[١].

ولما كانت فتنة القبور والأوثان من باب واحد، والرباط بينهما وثيق جدًّا؛ حيث إنّ الأوثان والأنصاب إنما نحتت وصورت وعبدت حبًّا وغلوًّا في الصالحين، كما فعل قوم نوح بودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسرٍ؛ لأنهم رجال صالحون.

كذلك إنما شيدت القبور، وشدت إليها الرحال، وقدمت لها القرابين؛ حبًّا وغلوًّا فِي رجال صالحين وفِي أقوام - الله أعلم بأحوالهم وبمآلهم -.

وعلىٰ كلّ حال فلما كان النوعان من باب واحد؛ لم

(١) فِي الصحيح، ٦٥- كتاب التفسير، تفسير سورة النجم، ٢- باب: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾.

يدّخر رسول الله ﷺ وسعًا فِي الأمر بهدم القبور والنهي أن يبنىٰ عليها، أو يزاد عليها ونهىٰ عن تجصيصها، ونهىٰ عن الصلاة عليها وإليها، وحذّر التحذير الشديد من شرّها، ولعن من يتخذون المساجد عليها.

عن أبي الهيّاج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ألّا تدع تمثالًا إلّا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلّا سويته»[١].

ألا ترىٰ أنّ رسول الله ﷺ كان يبعث عليًّا لتسوية

(١) أخرجه مسلم، ١١- كتاب الجنائز، ٣١- باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٣)، وأبو داود، ١٥- كتاب الجنائز، ٧٢- باب في تسوية القبر، حديث (٣٢١٨)، والترمذي، ٨- كتاب الجنائز، ٥٦- باب ما جاء في تسوية القبور، حديث (١٠٤٩)، والنسائي (٤/ ٧٣)، وأحمد في المسند (١/ ٩٦- ١٦٩).

القبور كما يبعثه لطمس التماثيل، ولا تستبعد أن رسول الله ﷺ كان يجنّد رجالًا هنا وهناك للقيام بهدم الأصنام والقبور كما مرّ بنا سابقًا.

وعن ثُمَامَة بن شُفَيٍّ قَالَ: «كُنَّا مَع فَضَالة بن عُبَيْد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره، فسوِيَّ، ثم قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يأمر بتسويتها»[1].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** «نهىٰ رسول الله ﷺ **أن يُجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه**»[2].

(١) أخرجه مسلم، ١١- كتاب الجنائز، ٣١- باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٢).

(٢) أخرجه مسلم، ١١- كتاب الجنائز، ٣٢- باب النهي عن تجصيص القبور والبناء عليها، حديث (٩٤).

وعن أبي مرثد الغَنَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تصلوا إِلَىٰ القبور، ولا تجلسوا عليها**»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تَجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[2].

وتستمر هذه العناية النبوية الواعية، لأخطار الأوثان والقبور، إِلىٰ آخر لحظة من لحظات حياة الرسول الناصح

(١) أخرجه مسلم، ١١- كتاب الجنائز، ٣٣- باب النهي عن الجلوس علىٰ القبر، حديث (٩٧، ٩٨).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، ٩- كتاب قصر الصلاة فِي السفر، ٢٤- باب جامع الصلاة، حديث (٨٥) مرسلًا، وأحمد (٢/ ٢٤٦)، ثنا سفيان عن حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا.

الأمين صلوات الله وسلامه عليه، فعن جُنْدُب[1] بن عبد الله البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[2].

وعند احتضاره وبعد اختياره للرفيق الأعلىٰ كان شغله الشاغل خطر فتنة القبور علىٰ هذه الأمة التي جهل

(١) بضم الجيم، والدال تُفتح وتُضَم.

(٢) أخرجه مسلم، ٥- كتاب المساجد، ٣- باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، حديث (٢٣).

أكثرها قدر هذه الاهتمامات النبوية، وجهل خطر هذه الفتنة الماحقة.

فعن عائشة أم المؤمنين وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قالا**: لمّا نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له علىٰ وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذر مثل ما صنعوا[1].

وعن أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: كان آخر ما تكلَّم به

(١) أخرجه البخاري، ٢٣- كتاب الجنائز، ٦١- باب ما يكره من اتخاذ المساجد علىٰ القبور، حديث (١٣٣٠)، وباب ٩٦- حديث (١٣٨٩)، ومسلم، ٥- كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور حديث (١٩) عن عائشة، وحديث (٢٢) عن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رسول الله ﷺ: «**أخرجوا يهود الحجاز من جزيرة العرب، واعلموا أنَّ شرار النَّاس الذين يتخذون القبور مساجد**»[(١)].

سرِّح طرفك فِي مشارق بلاد المسلمين ومغاربها؛ ترىٰ العجب العجاب، ترىٰ واقعًا يتحدىٰ هذه النصوص النبويَّة، وإذا قرأت عليهم هذه النصوص وبينت لهم مصادرها وتمسّك الصحابة وأعيان الأمَّة بها؛ واجهوك بتأويلات أسخف من تأويل من قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، واتهموك بعداء الأولياء.

والآن نتساءل إذا كانت دعوات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - تحمل في طياتها كل خير، وتحذر من كل شرّ، فما بالنا نرىٰ فيما قص الله علينا فِي كتابه وفِي دراستنا لسنَّة وسيرة نبينا محمد ﷺ أن دعواتهم إِلَىٰ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٩٥) بإسناد صحيح.

التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه ووسائله؛ قد أخذت مساحة كبيرة جدًّا من دعواتهم، واستغرقت زمنًا طويلًا من حياتهم؛ حتىٰ لكأنما كان هذا الجانب هو شغلهم الشاغل.

* فأين مواقفهم من الحكام الطغاة المستبدين؟

والجواب: أن ما أنتجه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - هو عين الحكمة والصواب، ومقتضىٰ العقل السليم، فليس فِي مشاكل البشر - سياسيها واقتصاديها واجتماعيها - من الخطر ما يساوي مشكلة الشرك ومضاره، ولا يقاربها.

قال تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ

فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

فالعقل والحكمة والفطرة تقتضي إذن أن يبدأ بمحاربة خطر الشرك، وأن تستمر دعوات الأنبياء وأتباعهم علىٰ محاربته ما بقيت له بقية أو بقي له شكل أو مظهر.

فإذا أحاطت بأمة مشاكل عقائدية، ومشاكل اقتصادية، ومشاكل سياسية، فبأيها تبدأ المعالجة الحكيمة؟

أما الأنبياء فلم يبدؤوا إلا بِمعالَجَة مشكلة العقيدة بكل قوة، والبدء بِمعالَجَة الأمر الأخطر أمر يتفق عليه كل عقلاء البشر، فلو أن مسافرين انتهىٰ بهم السير إلىٰ طريقين لا خيار لهم من سلوك أحدهما:

الأول: فيه براكين تقذف بلهبها ونيرانها تلتهم أشجارها وأحجارها.

والثاني: فيه الأشواك والرمضاء وأشعة الشمس اللاهبة. لما اختار عقلاؤهم إلا سلوك الطريق الثاني.

لنأخذ الآن أشد المفاسد - أعني المفاسد السياسية والاجتماعية والاقتصادية -، وأشدها فساد الحكم؛ لنوازنها بفساد العقيدة، فهل هما فِي ميزان الله وميزان الأنبياء سواء، أو أن أحدهما أشد خطرًا وأدهىٰ وأمرّ عاقبة؟!!

ففي ميزان الله وميزان أنبيائه أن أشدها خطرًا وأجدر بالتركيز عليه علىٰ مرّ الدهور والعصور وفي كل الرسالات؛ إنما هو الشرك ومظاهره الذي لا يضاهيه فساد مهما عظُم شأن هذا الفساد.

* **وبناءً علىٰ هذا نعود فنقول:** إنّ بدءَ جميع الأنبياء بإصلاح الجانب العقدي ومحاربة الشرك ومظاهره هو مقتضىٰ الحكمة والعقل؛ وذلك للأمور الآتية:

أولًا: أن المفاسد المتعلقة بعقائد الناس من الشرك والخرافات وأنواع الضلال؛ أخطر آلاف المرات من المفاسد المترتبة علىٰ فساد الحكم وغيره؛ فإن لم نقل هذا ونعتقده؛ سفّهنا من حيث لا نشعر جميع الأنبياء، ونعوذ بالله من الضلال.

إن هذه المفاسد تشمل الحاكم والمحكوم، فالحكام أنفسهم فِي كل زمان ومكان - إلا المؤمنين منهم -؛ يخضعون للأصنام والأوثان والقبور، ويقومون بتشييدها وحمايتها وعبادتها وتقديم القرابين لها، ويعتقدون أن لها سلطة غيبية قاهرة فوق سلطانهم المادي، فهي تضرهم وتنفعهم بذلك السلطان الغيبي فِي زعمهم، وبتلك القوة القاهرة الخفية، أو علىٰ الأقل تشفع لهم عند الله فِي تحقيق مآربهم!!

وأوضح مثال لخضوع الحكام للأوثان ذلك الطاغية المتأله فرعون، الذي قال متبجحًا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، فقد حكىٰ الله مقالة قومه له وهم يستثيرون فيه الحميَّة والغيرة لآلهته ومعبوداته، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. ألا ترىٰ أكبر طاغية عرفته الأرض مع دعواه الربوبيَّة يخضع للأوثان ويتخذها آلهة.

وهذا النمرود ملك الكلدانيين الذي ادّعىٰ الربوبيَّة، يأمر بإحراق إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عندما حطَّم الأصنام؛ أخذًا بثأر هذه الأصنام؛ لأنها آلهته، وهؤلاء ملوك الهند والفرس يعبدون الأوثان والنيران، وملوك الرومان فِي الماضي، وحكَّام أوربا وأمريكا في الحاضر يعبدون

الصور والصلبان، وكم من حكَّام المسلمين فِي الماضي والحاضر مَن فُتن بالأموات، وشاد عليهم القبور، وتعلق بها قلبه حبًّا ورجاءً وخوفًا وارتكبوا ما خشيه رسول الله علىٰ هذه الأمة وحذَّر منه.

ومن هنا يتضح لك جدية منهج الأنبياء وأحقيته، ويتضح لك أهمية مواقف الرسول الحاسمة من الأوثان والقبور، كما يتضح لك حكمة إبراهيم وبعد نظره حينما أطلقها صيحة مدوية تجلجل فِي الآفاق والأجيال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]

فترىٰ إبراهيم - وهو علىٰ غاية من الحق والصواب - يجأر إلىٰ الله من مخاطر الأصنام، ولا يجأر إليه من مخاطر

الحكَّام علىٰ جسامة فسادهم وخطرهم.

وبعد هذا العرض الواضح لدعوات الأنبياء خصوصًا من نصّ عليهم في هذا العرض، وبالأخصّ إبراهيم ومحمد - عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلام -.

فلنا أن نتساءل: لماذا نرىٰ دعوات الأنبياء تركّز علىٰ الأصنام وما جرىٰ مجراها، فيما نرىٰ الدعوات الآن تركّز علىٰ الحكَّام وتتلهىٰ بقضايا الحكم الفرعيَّة عن قضايا العقيدة الجذريَّة الأساسيَّة؟!

* فأيّ الفريقين أقوم منهجًا وأهدىٰ سبيلًا؟

والجواب: إنّ هذا سؤال صعب جدًّا، نستغفر الله منه، ألجأنا إليه هؤلاء الدعاة الذين نشئوا فِي هذه العصور المظلمة التي اشتدت فيها غربة الإسلام، وتجارت فيها الأهواء بأصحابها كما يتجارىٰ الكَلَب بصاحبه، كما قال

رسول الله ﷺ.

وإلّا ففي الحقيقة لا تجوز المقارنة بين الفريقين ولا بين المنهجين.

ألَم تر أنّ السيف يـنقص إذا قيل إنّ السيف أمضىٰ

بل الأمر فوق ذلك بمراحل.

ثانيًا: إن الله ما أرسل الرسل إلا ليعلّموا الناس الخير وينذروهم بطش الله والشر.

قال الله تعالَىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨]. وقال تعالَىٰ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وقال رسول الله ﷺ: «**ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**»[1].

وهذه مهمة الإنذار والتبشير والإبلاغ مهمة جليلة عظيمة نبيلة، يكفيها عظمة ونبلًا أنها مهمة الأنبياء، وتتناسب مع مكانتهم الرفيعة؛ فإنها أشق وأعظم ما يتحمله الرسل وورثتهم من الدعاة الصادقين المخلصين السائرين فِي مناهجهم.

ثالثًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يكلفهم - ابتداءً - بإقامة دول وإسقاط أخرىٰ، وذلك فِي غاية الحكمة؛ لأن الدعوة إلىٰ إقامة دولة تلوح فيها المطامع لطلّاب الدنيا،

(١) أخرجه البخاري، ٩٧- كتاب التوحيد، ٢٠- باب قول النبي ﷺ: «**لا شخص أغير من الله**»، حديث (٧٤١٦)، ومسلم (٢/ ١١٣٦)، ١٩- كتاب اللعان، حديث (١٧).

وأصحاب الأغراض والتطلعات؛ فما أسرع ما تستجيب هذه الأصناف للدعوة إلَىٰ قيام دولة يرون فيها تحقيق مطامعهم.

لمثل هذه الاعتبارات - والله أعلم -، وغيرها مما يعلمه الله الخلّاق العليم الحكيم؛ ابتعدت دعوات الأنبياء ومناهجهم عن استخدام هذا الشعار البراق الملوح أو المصرح بالأطماع والشهوات العاجلة، وسلكت منهجًا حكيمًا نزيهًا شريفًا ينطوي علىٰ الابتلاء والاختبار لا يؤمن به إلا الصادق المخلص المتجرد من المطامع، لا يريد بإيمانه إلا الجنة ومرضاة ربه، ولا يخاف إلا من غضبه وأليم عقابه، ولهذا لا يتبعهم فِي الغالب إلا الفقراء والمساكين والضعفاء.

قال تعالَىٰ حكاية عن قوم نوح: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ

وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقال عن قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.
[الأعراف: ٧٥، ٧٦]

* **وجاء فِي أسئلة هرقل لأبي سفيان:** «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ ».

قال أبو سفيان: فقلت: بل ضعفاؤهم. ثم قال هرقل: وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل».

فالدعوة إلَىٰ إقامة دولة أسهل بكثير وكثير، والاستجابة لها أسرع؛ لأن أكثر الناس طلاب دنيا وأصحاب شهوات.

ولما ذكرنا من الأسباب والعقبات والصعاب في طريق دعوات الرسل نجد أنه لا يتبعهم إلا القليل، فنوح لبث ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. يدعو إلىٰ الله ومع ذلك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وهذا إبراهيم الخليل قامع المشركين بالحجج الدامغة والبراهين، قال الله في شأنه وشأن من آمن له:

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهذا لوط يقول الله في نجاة من معه من العذاب - ولعلهن بناته فقط -: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ولا يغض ذلك من منازل الأنبياء مثقال ذرة، بل هم في أعلىٰ المنازل وهم أنبل الناس وأجل الناس وأكرمهم،

وقد قاموا بواجبهم علىٰ أكمل الوجوه من الدعوة إلىٰ التوحيد والتبشير والإنذار، فإذا قلَّ أتباعهم؛ فالعيب كل العيب علىٰ الأمم التي رفضت الاستجابة لدعوتهم.

وقد يهدي الله قوم نبي من الأنبياء فيستجيبون له أو كثير منهم؛ فتكون لهم دولة؛ ثمرة طيبة لإيمانهم وتصديقهم وأعمالهم الصالحة، فيقومون بواجبهم من الجهاد لإعلاء كلمة الله وتطبيق التشريعات والحدود وغيرها من الأمور التي شرعها الله لهم؛ كما حصل لنبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام، توّج الله إيمانهم وصبرهم الجميل علىٰ بغي المشركين وتطاولهم بأن نصرهم، وأظهر دينهم، ومكَّن لهم في الأرض.

ومع ذلك فما كانوا طلاب ملك بل كانوا دعاة هداية وتوحيد، ولا كانوا يُعدّون أتباعهم للثورات

والانقلابات السياسيَّة.

ولقد عُرض علىٰ رسول الله ﷺ الملك بمكة؛ فرفض إلا المضي فِي الدعوة إِلَىٰ التوحيد ومحاربة الشرك والأوثان.

وخلاصة هذا: أنَّ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما جاءوا لإسقاط دول وإقامة أخرىٰ، ولا يطلبون ملكًا ولا ينظّمون لذلك أحزابًا، وإنّما جاءوا لهداية النَّاس وإنقاذهم من الضلال والشرك، وإخراجهم من الظلمات إِلَىٰ النور، وتذكيرهم بأيَّام الله.

ومن هنا ما كان الرسول يبايع الأنصار وغيرهم إلّا علىٰ الجنَّة، فما كان فيها وعد بالإمارات ولا بالمال ولا بغير ذلك من حظوظ العاجلة.

عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «انطلق

رسول الله ﷺ ومعه العباس عمّه إِلَىٰ السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال قائلهم - وهو أبو أمامة -: سل يا محمد لربّك ما شئت، ثمّ سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثمّ أخبرنا ما لنا من الثواب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وعليكم، إذا فعلنا ذلك.

فقال: «**أسألكم لربّي** عَزَّوَجَلَّ **أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأسألكم لي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا، وتمنعونا مِما منعتم منه أنفسكم**»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**لكم الجنَّة**»، قالوا: فلك ذلك»[1].

(١) رواه أحمد فِي المسند (٤/ ١١٩، ١٢٠)، قال: ثنا يحيىٰ بن أبي زكريا بن أبي زائدة، حدثني أبي عن عامر - يعني: الشعبي -، ثم رواه بهذا الإسناد عن مجالد، عن عامر الشعبي، عن أبي مسعود الأنصاري، ثم رواه بهذا الإسناد عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، يقول: ما سمع الشيب ولا الشبان خطبة مثلها.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** مكث رسول الله ﷺ بمكَّة عشر سنين يتتبع النَّاس فِي منازلهم بعكاظ ومجنّة، وفِي المواسم فِي منىٰ، يقول: «**من يؤويني، من ينصرني؛ حتىٰ أبلغ رسالة ربي وله الجنّة**».

حتىٰ إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر (كذا)، فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش؛ لا يفتنك. ويمشي بين رجالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتىٰ بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه، وصدّقناه، فيخرج الرجل منَّا، فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلىٰ أهله فيسلمون بإسلامه، حتىٰ لم يبق دار من دور الأنصار إلّا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثمّ ائتمروا جميعًا، فقلنا: حتىٰ متىٰ نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة، ويخاف؟!! فرحل إليه منّا سبعون رجلًا،

حتىٰ قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجلٍ ورجلين، حتىٰ توافينا، فقلنا: يا رسول الله! نبايعك؟

قال: «**تبايعوني علىٰ السمع والطاعة فِي النشاط والكسل، والنفقة فِي العسر واليسر، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا فِي الله لا تخافون فِي الله لومة لائم، وعلىٰ أن تنصروني؛ فتمنعوني إذا قدمت عليكم مِما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنَّة**».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنّا لم نضرب أكباد الإبل إلّا ونحن نعلم أنّه رسول الله ﷺ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافَّة، وقتل خياركم، وأنَّ تعضكم السيوف، فإمَّا أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك،

وأجركم علىٰ الله، وإمَّا أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة؛ فبيّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنَّا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نُسْلَبُها أبدًا. قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا علىٰ ذلك الجنَّة»[١].

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٢): ثنا عبد الرزاق، أنا معمر عن ابن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر، (٣/ ٣٣٩): ثنا إسحاق بن عيسىٰ، ثنا يحيىٰ بن سليم، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، أنّه حدثه عن جابر، أن رسول الله ﷺ... وذكر الحديث.

وأخرجه ابن حبان فِي صحيحه كما في موارد الظمآن (ص ٤٠٨)، والحاكم (٢/ ٦٢٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وقد تابع أبا الزبير الإمام الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال البزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حدثنا محمد بن معمر، ثنا قبيصة، ثنا سفيان، عن جابر وداود – هو ابن أبي هند –، عن الشعبي، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء =

ومن هنا – أيضًا – كان يربي أصحابه علىٰ القرآن والسنَّة، وعلىٰ الإيمان والصدق والإخلاص لله فِي كلِّ عمل بعيدًا عن الأساليب السياسيَّة والإغراء بالمناصب العالية، فما كان يمنّي أحدًا منهم قبل دخوله فِي الإسلام أو بعده بمنصب في الدولة، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أحد عظماء الصحابة وأقواهم شخصيَّة؛ ما كان يَعِده رسول الله ﷺ بالمناصب، ولا تتطلع نفسه إليها، حتىٰ جاء يوم خيبر، أي: بعد عشرين سنة من البعثة، =

= من الأنصار: «**تؤوني**. وقالوا: نعم، فما لنا؟ قال: **الجنة**».

قال البزار: لا نعلمه يروىٰ عن الشعبي إلّا بهذا الإسناد». انظر: كشف الأستار (٢/ ٣٠٧).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الأحاديث، وحكىٰ تصحيح بعضها، وحسن بعضها، وقوىٰ بعضها. انظر فتح الباري (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

فاجأهم رسول الله ﷺ بقوله: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يُحبّ الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه**».

فبات هو والصحابة يدوكون ليلتهم أيُّهم يعطاها، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أحببت الإمارة إلّا يومئذ[١].

* لأيِّ شيء تطلع هؤلاء الصحابة الكرام؟! أللإمارة نفسها أم لنيل هذه المنزلة العظيمة حب الله ورسوله؟ ولماذا كان عمر بن الخطاب لا يحب الإمارة لو كان رسول الله يُحبِّبها إليهم ويربيهم عليها ويمنيهم بها؟!

* بل كان ينفرهم منها ويحذرهم من الحرص عليها.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**إنّكم ستحرصون علىٰ الإمارة، وستكون ندامة يوم**

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وسهل بن سعد، وسعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأخرجه البخاري من حديث سهل.

القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»[١].

وعن عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة؛ فإنّك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»[٢].

(١) أخرجه البخاري، ٩٣- كتاب الأحكام، ٧- باب ما يكره من الحرص علىٰ الإمارة، حديث (٧١٤٨).

قال ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٢٦): «**(نعم المرضعة)** لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها، **(وبئست الفاطمة)** عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات فِي الآخرة».

(٢) أخرجه البخاري، ٩٣- كتاب الأحكام، ٧- باب من سأل الإمارة وكل إليها، حديث (٧١٤٧)، ومسلم، ٣٣- كتاب الإمارة، ٣- باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، حديث (١٣).

بل فوق كل هذا يرسي قاعدة تحريم المناصب علىٰ من يحرص عليها: عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت علىٰ النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمّي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله! أمِّرنا علىٰ بعض ما ولّاك الله عَزَّ وَجَلَّ. وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «**إنّا لا نولي علىٰ هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه**».

وفي لفظ عند مسلم: «**ما تقول يا أبا موسىٰ أو يا عبد الله بن قيس؟**».

قال: فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني علىٰ ما في أنفسهما، وما شعرت أنّهما يطلبان العمل. قال: وكأني أنظر إلَىٰ سواكه تحت شفته وقد قلصت. فقال: «**لن** – أو: **لا** – **نستعمل علىٰ عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا**

أبا موسىٰ». فبعثه إلَىٰ اليمن ثمَّ أتبعه معاذًا [1].

قال الحافظ: «قال المهلب: الحرص علىٰ الولاية هو السبب فِي اقتتال النَّاس عليها؛ حتىٰ سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد فِي الأرض بذلك، ووجه الندم أنّه قد يقتل أو يعزل أو يموت؛ فيندم علىٰ الدخول فيها؛ لأنّه يطالب بالتبعات التي ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته».

قال: «ويستثنىٰ من ذلك مَن تعين عليه؛ كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم

(١) أخرجه البخاري، ٩٣- كتاب الأحكام، ٦- باب ما يكره من الحرص علىٰ الإمارة، حديث (٧١٤٩)، ومسلم، ٣٣- كتاب الإمارة، ٣- باب النهي عن طلب الإمارة، حديث (١٤، ١٥) (١٤٥٦/٣).

يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال»[1].

وعلىٰ كلّ حال فالإمارة والقضاء من الأمور التي لا بدّ منها، ولا تقوم حياة المسلمين إلّا بها، وبها تعصم الدماء والأموال والأعراض.

ولكن يَجب أن نسلك فِي اختيار الأمراء والقضاة منهاج رسول الله ﷺ، فلا تعطىٰ هذه المناصب لِمن يسألها أو يَحرص عليها أو يرشح نفسه لَها عن طريق الانتخابات مثلًا؛ فإنّ هذا من الحرص عليها، وإنّما يُختار لَها الأكفاء علمًا وزهدًا فيها وتقوًىٰ.

ولا ينبغي أن ننشئ الشباب علىٰ حب الإمارة، فلو نشأناهم علىٰ حب الإمارة خالفنا هدي رسول الله ﷺ،

(١) فتح الباري (١٣/ ١٢٦).

وأوقعنا الشباب في المهالك، وأي فلاح ننتظره في الدنيا والآخرة إن خالفنا منهج رسول الله ﷺ؟!

عرفنا فيما مضىٰ من منهج الأنبياء فِي الدعوة إلَىٰ التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه، وأنّه منهج قائم علىٰ العقل والحكمة والفطرة، وعرفنا أدلَّة ذلك جملة وتفصيلًا من نصوص الكتاب والسنَّة ومن الناحية العقليَّة.

❋ والآن نسأل:

هل يجوز للدعاة إلىٰ الله فِي أيّ عصرٍ من العصور العدول عن منهج الأنبياء فِي الدعوة إلىٰ الله؟

❋ **الجواب:** فِي ضوء ما سبق وما سيأتي؛ لا يجوز شرعًا ولا عقلًا العدول عن هذا المنهج واختيار سواه.

أولًا: أنَّ هذا هو الطريق الأقوم الذي رسمه الله

لجميع الأنبياء من أوّلهم إلىٰ آخرهم.

ثانيًا: أنّ الأنبياء قد التزموه وطبّقوه، مما يدل دلالة واضحة أنّه ليس من ميادين الاجتهاد، فلم نجد:

١) نبيًّا افتتح دعوته بالتصوّف.

٢) وآخر بالفلسفة والكلام.

٣) وآخر بالسياسة.

بل وجدناهم يسلكون منهجًا واحدًا يبدأ بتوحيد الله في الدرجة الأولىٰ.

ثالثًا: أنّ الله قد أوجب علىٰ رسولنا الكريم، الذي فرض الله علينا اتباعه، أن يقتدي بهم، ويسلك منهجهم، فقال - بعد أن ذكر ثمانية عشر منهم -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد اقتدىٰ بهداهم في البدء بالتوحيد، والاهتمام الشديد به.

رابعًا: ولما كانت دعوتهم في أكمل صورها تتمثل في دعوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ زاد الله الأمر تأكيدًا، فأمر نبيّنا محمدًا ﷺ باتباع منهجه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

والأمر باتباعه يشمل الأخذ بملّته التي هي التوحيد ومحاربة الشرك، ويشمل سلوك منهجه في البدء بالدعوة إلىٰ التوحيد، وزاد الله تعالىٰ الأمر تأكيدًا - أيضًا - فأمر أمَّة محمد ﷺ باتباع ملة هذا النبي الحنيف، فقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

إذن: فالأمّة الإسلاميَّة مأمورة باتباع ملَّته، فكما لا

يَجوز مُخالفة ملّته؛ لا يَجوز العدول عن منهجه في الدعوة إِلَىٰ التوحيد ومُحاربة الشرك ومظاهره ووسائله.

خامسًا: أنَّ الله قد جعل للكون سُننًا يسير في نطاقها؛ لو اختلت هذه السنن الكونيَّة لفسد هذا الكون.

ومن سُنَن الله الكونيَّة أنّ الحيوان من إنسان وغيره لا يعيش إلّا بروح وجسد، فلو فارقت الروح الجسد؛ مات الجسد وفسد وأنتن، ووجب أن يُوارىٰ هذا الجسد؛ حتىٰ لا يؤذي الحيوانات بريحه ونتنه.

ومن سنن الله فِي عالم النبات أنَّ الشجرة لا تقوم وتحيا إلّا علىٰ ساق، فإذا استؤصل ساقها ماتت الفروع.

وفِي عالم الشرائع لا تقوم الشريعة إلا علىٰ عقيدة، فلو خلت تلك الشريعة من العقيدة؛ فسدت وما بقيت شريعة صحيحة.

فمثلًا شريعة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقيت فِي الأمَّة العربيَّة دهورًا، فلمَّا أدخل عمرو بن لحي الخزاعي فيها الشرك؛ أصبحت شريعة وثنيَّة، ففسدت وتغيرت حقيقتها؛ لأنها فقدت عقيدة التوحيد التي قامت عليها والتي كانت أصلها الأصيل.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يَجرّ قُصبهُ**[1] **فِي النار؛ كان أوّل من سيَّب السوائب**»[2].

---

(١) قُصبه: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري، ٦٥- كتاب التفسير، باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، حديث (٤٦٢٣)، ومسلم، ١٠- كتاب الكسوف، حديث (٩)، و٥١- كتاب الجنة، باب (١٣) حديث (٥٠، ٥١).

فبعد إفساد عمرو بن لحي لعقيدة الشريعة التي جاء بها إبراهيم، وتبعه إسماعيل؛ صارت ديانة وثنيَّة، والعرب عباد أوثان ولو بقوا مصرّين علىٰ الانتماء إلَىٰ إبراهيم ودينه وشريعته، ولو بقوا يتمسكون ببقايا مما جاء به؛ كتعظيم البيت والطواف به، والقيام بالحج والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وهدي البدن، وغيرها من أنواع التقرب إلَىٰ الله تعالَىٰ.

وكذلك كانت رسالة موسىٰ وعيسىٰ رسالة توحيد وشريعة سماويَّة، فلما فقدتا عقيدة التوحيد بقول اليهود: «عزير ابن الله»، وبقول النصارىٰ: «المسيح ابن الله»، صارتا ديانتين كافرتين، لا يجوز نسبتهما إلَىٰ الله ولا إلَىٰ هذين النبيين الكريمين.

قال تعالَىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ

ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٢٩، ٣٠].

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذن: تتبع كلّ أمَّة ما كانت تعبد**[(١)]**؛ فلا يبقىٰ من كان يعبد غير الله من الأصنام**

---

(١) **هذا هو الشرك الذي قال الله فيه:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، وهذا مصير أهله يوم القيامة من الوثنيين وأهل الكتاب، «**تتبع كل أمة ما كانت تعبد...**» إلخ، وفيه ردٌّ علىٰ المهونين من هذا الشرك العظيم مع جهلهم بالتوحيد، حيث يقولون فيه: الشرك =

والأنصاب إلا يتساقطون في النَّار، حتىٰ إذا لَم يبق إلا من كان يعبد الله من برّ وفاجر، وغبرات[1] أهل الكتاب،

=

البدائي والشرك الساذج؛ تهوينًا لشأنه ولشأن دعوة الأنبياء وورّاثهم، ويصفون صراعهم السياسي مع الحكام، وما يتبعه من عادات وتقاليد بأنه الشرك الحضاري؛ تضخيمًا له ولدعوتهم، يوهمون النَّاس أنهم يواجهون مشكلات أكبر من المشكلات التي واجهها الأنبياء وورّاثهم من المصلحين الذين ساروا علىٰ نهجهم في محاربة الشرك الأكبر وما يتبعه من الضلال؛ فلماذا لم يذكر رسول الله ﷺ مصير أهل الشرك الحضاري وأوثانهم؟! ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ فهل الشرك الحضاري يحتاج إلَىٰ نبوة جديدة تنبئنا عن مصير أهله وأوثانهم من الموضات والتقاليد والعادات وأمثال ذلك، إننا لا نستهين بهذه الذنوب، ولكنا نحارب الغلو الطاغي الذي فاق بكثير غلو الخوارج فِي السابق في نظرتهم إلَىٰ المعاصي.

(١) **الغبرات:** جمع غُبَّر. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٣٨).

=

فيدعىٰ اليهود، فيقال لَهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد عزير ابن الله. فيقال لهم: كذبتم؛ ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا ربَّنا، فاسقنا. فيشار: ألا تردون؟ فيحشرون إلَىٰ النَّار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون.

ثمَّ يدعىٰ النصارىٰ، فيقال لَهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد المسيح ابن الله. فيقال لَهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فيقال لَهم: ماذا تبغون؟

فكذلك مثل الأول، حتىٰ إذا لَم يبق إلا من كان يعبد

=

وقال الحافظ فِي الفتح (١١/ ٤٤٩): غُبَّر أهل الكتاب، بضم الغين المعجمة وتشديد الموحدة.

وفِي رواية مسلم: وغَبَّر أهل الكتاب. كلاهما جمع غابر، والغبرات: جمع غبَّر، وغبَّر جمع غابر، ويجمع أيضًا علىٰ أغبار، وغبر الشيء بقيته.

الله من برّ وفاجر، أتاهم ربُّ العالمين في أدنىٰ صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون؟ تتبع كل أُمَّة ما كانت تعبد. قالوا: فارقنا النَّاس في الدنيا علىٰ أفقر ما كنَّا إليهم ولَمْ نصاحبهم، ونَحن ننتظر ربنا الذي نعبد، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: لا نشرك بربنا شيئًا. مرتين»(1).

وأحب أن أزيد ثلاثة أمثلة نزداد بها فهمًا لسنن الله التشريعيَّة، وأن التنظيم والترتيب فيها أمر مقصود، ويجب اتباعه، ولا يجوز العدول عنه.

الأوَّل: الصلاة:

علّمنا رسول الله ﷺ الصلاة تعليمًا عمليًّا، وقال:

(1) أخرجه البخاري، ٦٥- كتاب التفسير، سورة النساء، ٨- باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، حديث (٤٥٨١)، ومسلم، ١- كتاب الإيمان، ٨١- باب معرفة الرؤية، حديث (٣٠٢).

«صلُّوا كما رأيتموني أصلي»(1).

فبدأ ﷺ بالقيام، ثمّ بالتكبير، ثمّ بالقراءة، ثمّ الركوع، ثمّ السجود، هذا نفعله في ركعة، ثم الثانية كذلك، ثم التشهد الأوّل، ثم التشهد الأخير، ثم السلام.

فلو قالت جماعة: الآن الأفضل في هذا العصر أو الواجب أن نبدأ بالسلام ونختم بالتكبير، أو نقدّم

(1) أخرجه البخاري، ١٠- كتاب الأذان، ١٨- باب أذان المسافر، حديث (٦٣١)، و٧٨- كتاب الطب، ٢٧- باب رحمة الناس والبهائم، حديث (٦٠٠٨)، و٩٥- كتاب أخبار الآحاد، ١- باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، حديث (٧٢٤٦)، ومسلم، ٥- كتاب المساجد، ٥٣- باب من أحق بالإمامة، حديث (٢٩٢)، والنسائي (٨/٢)، والدارمي (٣٢٩/١)، حديث (١٢٥٦)، وأحمد (٤٣٦/٣)، كلهم من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السجود علىٰ الركوع، أو نجعل التشهد بدل الفاتحة، والفاتحة مكان التشهد، فلو تمّ لها هذا أو شيء منه؛ فهل تكون هذه صلاة صحيحة؟! وهل تكون إسلاميَّة؟!!

الثاني: الحج:

حج رسول الله ﷺ، وعلّم النَّاس مناسك الحج، وقال: «**خذوا عنّي مناسككم**».

وجعل الوقوف بعرفة فِي مكان وزمن معيّن هو اليوم التاسع، وجعل المبيت فِي مزدلفة في ليلة معيّنة، وجعل يوم النحر وأيام التشريق ولياليه فِي مكان وزمن معيّن، وجعل طواف الإفاضة فِي زمن معيّن، وجعل للسعي مكانًا معيّنًا بين الصفا والمروة، حدّد بدايته ونهايته.

فلو أنّ جماعة أرادوا أن يغيّروا شيئًا من هذه المناسك

عن زمانه أو مكانه، مثلًا قالوا: نريد أن يكون طواف الإفاضة فِي اليوم السابع، وأن يكون بين الصفا والمروة، ونريد أن ننقل الوقوف بعرفة إلىٰ اليوم الثامن أو العاشر إلىٰ مزدلفة أو منىٰ، ونريد النحر بعرفات؛ أيكون هذا حجًّا إسلاميًّا أو يكون مسخًا وتشويهًا لهذا النسك؟!!

الثالث: وهو بيت القصيد:

بدأ رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد، وكذلك جميع الرسل، وكان يوصي أمراءه ودعاته بالبدء بدعوة التوحيد.

يبدأ بأصل الأصول، ثمّ يتدرج من الأهم إلىٰ المهم؛ فلماذا لا نفهم هذا التنظيم الدقيق؟! ولماذا لا نلتزمه؟! ولِماذا نفهم أنه يَجب علينا أن نلتزم سنَّة الله التشريعيّة، وتنظيمه الدقيق، في العبادات وجزئياتها، ولا نفهم سنَّة الله وتنظيمه وترتيبه الدقيق في ميدان الدعوة الذي تتابع

فيه الأنبياء جَميعًا علىٰ وتيرة واحدة، ونستجيز مُخالفة هذا المنهج العظيم الأصيل والعدول عنه؟!!

إنّ طائفة كبيرة من الدعاة المعاصرين؛ قد جهلوا هذا المنهج، وبعضهم يتجاهله، وحالت الشياطين بينهم وبينه واجتالتهم عنه، واتخذوا من المناهج المخالفة لمنهج الأنبياء ما أرداهم فِي دينهم ودنياهم، وصدق فيهم قول الرسول الصادق المصدوق ﷺ: «**لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع؛ حتىٰ لو سلكوا جحر ضبّ لسلكتموه**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٠- كتاب الأنبياء، ٥٠- باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث (٣٤٥٦)، و٩٦- كتاب الاعتصام، ١٤- باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، حديث (٧٣٢٠)، =

وقوله ﷺ: «**افترقت اليهود إلَىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وافترقت النصارىٰ إلَىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمَّة إلَىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها فِي النار إلّا واحدة وهي الجماعة**»[1].

= ومسلم، ٤٧- كتاب العلم، ٣- باب اتباع سنن اليهود والنصارىٰ، حديث (٦).

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨)، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث عوف بن مالك.

وأخرجه ابن أبي عاصم في السنَّة (١/ ٣٢)، وقال الألباني: إسناده جيد.

وأخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٣٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنَّة (١/ ٣٢)، وقال الألباني: وهو صحيح وله شواهد كثيرة بعضها في الصحيحين. =

وفِي لفظ: من هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**» (١).

وأصبحوا غثاءً كغثاء السيل؛ كما قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأكلة إِلَىٰ قصعتها**». فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير؛ ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله فِي قلوبكم الوهن**».

=

وأخرجه أحمد (٣/ ١٢٠، ١٤٥) من حديث أنس من طريقين.

وأخرجه ابن أبي عاصم فِي السنَّة (١/ ٣٢) وقال الألباني: والحديث صحيح قطعًا؛ لأن له ست طرق وشواهد عن جمع من الصحابة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

فقال قائل: وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(١).

أجل، أصبحوا غثاءً كغثاء السيل، وتداعت عليهم الأمم كما تداعىٰ الأكلة إِلَىٰ قصعتها، وغزوهم فِي عقر دارهم، واستذلوهم، واستنزفوا ثرواتهم، وأفسدوا أخلاقهم، كل ذلك نتيجة لبعدهم عن منهج النبوّة.

وفِي غمرة هذا الواقع المؤلم، وبعد فوات الأوان، فتح كثير من الناس أعينهم واستيقظوا من نومهم، فأخذوا يصيحون فِي المسلمين عودوا إِلَىٰ الله، فهذه مسالك النّجاة.

وأخذوا يكتبون ويخطبون، ويوجهون النَّاس ويخططون، وكلٌّ قدّم جهده، وما تراءىٰ له أنّه الحق، لكنهم ساروا في

(١) صححه الألباني فِي الصحيحة (٢/ ٦٨٤) رقم (٩٥٨).

اتجاهات مختلفة.

*** وكانت أبرز هذه الاتجاهات ثلاثة:**

الأوّل: يمثله جماعة أخذت بمنهج الرسل في عقيدتها ودعوتها، وتمسّكت بكتاب ربّها وسنَّة نبيّها، وترسمت خطىٰ السلف الصالح في عقيدتها وعبادتها ودعوتها.

وهذا هو الاتجاه الذي يجب أن يلتف حوله المسلمون؛ تنفيذًا لقول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ولتتضافر جهودهم، فيرضىٰ عنهم ربّهم وتقوىٰ شوكتهم، ويصلون بذلك إلىٰ ما يريدون من عزّة وسيادة وسعادة.

ويؤخذ علىٰ أصحاب هذا الاتجاه أنَّهم لم يبذلوا من الجهود الماديّة والمعنوية لنشر دعوة الحق، ومن العرض القوي لحقهم في شكل دعوة ومؤلفات، ما يتناسب مع

مكانة دعوتهم وجلالها.

والثاني: يمثله جماعة اهتمت ببعض الأعمال من الإسلام وتغلّبت عليها نزعات الصوفيَّة، هزّت عقيدة التوحيد في كثير من نفوس أتباعها، وعليهم مؤاخذات في عقيدتهم وعباداتهم.

وقد قام الشيخ تقي الدين الهلالي، والشيخ محمد أسلم – أحد خريجي الجامعة الإسلاميَّة – وغيرهما، بنقد موجّه لهذه الجماعة، من واجبها أن تستفيد منه، وتعود إلىٰ جادَّة الحق والصواب.

والثالث: يمثله جماعة اهتمت بجوانب من الإسلام سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة، وقدمت الشيء الكثير باسم السياسة الإسلاميَّة، والدعوة إلىٰ حاكميَّة الله وإقامة الدولة الإسلاميَّة، بأساليب في غاية من القوّة

والجاذبية التي تأسر القلوب وتخلب الألباب، وفيها كتبوه وقدَّموه الغبش الكثير الذي يحتاج إلىٰ تصفية.

وفِي الوقت نفسه الذي اهتموا فيه بهذه الجوانب قصّروا فِي حق العقيدة تقصيرًا واضحًا، فلو اتّجهوا بالقوّة نفسها والاهتمام نفسه إِلَىٰ الإصلاح فِي العقيدة علىٰ منهج الأنبياء، وكرّسوا جهودهم وأقلامهم علىٰ اقتلاع الشركيّات ومظاهرها والبدع والخرافات وأساطيرها؛ لحقَّقوا الخير الكثير للإسلام والمسلمين، ولأتوا البيوت من أبوابها، ولكانوا حقًّا علىٰ منهج الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –، ولما كانت دعوتهم وإنتاجهم الفكري بالمكانة التي ذكرتها، وأنا واحد من القرّاء الكثر لهذا النِّتاج؛ أحببت أن أبدي بعض الملاحظات علىٰ بعض قادة هذا الاتّجاه إحساسًا بثقل المسؤوليَّة أمام الله القائل

فِي محكم كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فأرجو ممن يتعاطف مع هذا الاتّجاه أن يفتحوا صدورهم للنقد الذي أرجو أن يكون بناءً، وهادفًا إِلىٰ الخير، وإِلَىٰ نفع الأمَّة الإسلاميَّة.

فمن كبار قادة هذا الاتجاه أبو الأعلىٰ المودودي[١]، وعليه مآخذ شديدة لا يجوز لمسلم يخشىٰ الله، ويجلّ الإسلام الذي يربأ بأتباعه عن تقديس الأشخاص وأفكارهم، أن يسكت عنها.

---

(١) **انظر رسالة**: (الشقيقان المودودي والخميني) ترىٰ بعض عقائده المنحرفة (ص ١٧)، وتشابهه مع الرافضة، وخدمته لمذهبهم، واعتراف زعماء الشيعة بذلك فِي (ص ٣١– ٣٣).

*** فمن تلكم المآخذ:**

أولًا: أنّه لم ينطلق بدعوته من حيث انطلق الأنبياء - عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلام - فِي الدعوة إلىٰ التوحيد وإخلاص العبادة لله، ومحاربة الشرك ومظاهره مع أنّ بلاده التي نشأ فيها أشدّ بلدان الله حاجة إِلَىٰ دعوة الأنبياء، والدواعي فيها أوفر.

فهي بلاد عريقة فِي الوثنيَّة، تعبد فيها الأوثان، والأبقار، والأحجار، والقرود، والفروج، ففيها أحط أنواع الوثنيات وأقبحها وأشنعها.

والمسلمون في هذا البلد إلا القليل من أبعد النَّاس عن فهم الإسلام والتوحيد، وعقائدهم متأثرة إِلَىٰ حدّ بعيد بعقائد جيرانهم الوثنيين، وكم يرىٰ الرائي معبدًا للوثنيين فيرىٰ مقابله مشهدًا للمسلمين فيه قبر مشيد، مكللٌ بالزهور، ويتصاعد فيه البخور، ويلبّس بالحرير، والمسلمون عاكفون حوله فِي غاية من الخشوع والخضوع والإجلال، مع اعتقادهم فِي الأولياء أنّهم يعلمون الغيب ويتصرّفون فِي الكون[1].

ثانيًا: اهتم بالجانب السياسي فأخذ من دعوته مساحة كبيرة وحجمًا أكبر من الحجم الذي أعطاه الإسلام لهذا الجانب، وفهم علماء سلف هذه الأمَّة من محدثين وفقهاء ومفسرين، وجعل لنفسه ولأتباعه غاية لم يرسمها الله لرسله، ولا كلَّفهم وأتباعهم بها؛ لأنّها فوق الطاقة البشريَّة.

يقول المودودي مُعبرًا عن هذه الغاية:

١- «لعله قد تبيّن لكم من كتاباتنا ورسائلنا أنّ غايتنا

(١) من يفعل ذلك لا يطلق عليه أنه مسلم إلا إذا فعله عن جهل، ولم تقم عليه الحجة. [الفوزان].

النهائيَّة التي نقصدها من وراء ما نحن بصدده الآن من الكفاح، إنّما هي إحداث الانقلاب فِي القيادة، وأعني بذلك أن ما نبتغي الوصول إليه والظفر به فِي هذه الدنيا أن نطهر الأرض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم، ونقيم فيها نظام الإمامة الصالحة الراشدة، فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجح وسيلة موصلة إِلَىٰ نيل رضىٰ الرب تعالَىٰ، وابتغاء وجهه الأعلىٰ فِي الدنيا والآخرة»[1].

لعلّ القارئ الكريم الفطن الذي يتدبّر دعوات الرسل من أوَّلهم إِلَىٰ آخرهم؛ لا يعرف أن هذه غاية الأنبياء التي كافحوا من أجلها.

كان الأستاذ المودودي علىٰ علم تام بما عليه أهل

(١) الأسس الأخلاقيَّة للحركة الإسلاميَّة (ص١٦).

الهند من جهل بالإسلام وما هم فيه من بدع وضلالات، وعلىٰ معرفة تامّة أنّ فيهم بقايا من المعتقدات والأخلاق والتقاليد من دياناتهم السابقة، وقد تحدّث عن هذا فِي كتابه «واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم»[1]، بعد أن تحدّث عن تقصير الحكام وتقاعسهم عن تربية الداخلين فِي الإسلام تربية إسلاميَّة، وأن المعاهد التي كانت تقام للتعليم لا يستفيد فيها إلا الطبقات العليا أو الوسطىٰ، قال:

«وما زال الدهماء فِي جهل تام بتعاليم الإسلام محرومين من آثاره الإصلاحيَّة إِلَىٰ حدٍّ عظيم، وقد سبَّب كل ذلك أن كان النَّاس من غير المسلمين يدخلون في دين الله شعوبًا وقبائل، إلا أن كثيرًا من الرسوم الباطلة والعادات الجاهلية مِمَّا كانوا عليه من قبل إسلامهم لا

(١) (ص ١٢٨، ١٢٩).

تزال متفشية فيهم إلىٰ يومنا هذا، بل لم تتغير أفكارهم ومعتقداتهم تغيرًا تامًّا ولا يزال يوجد فيهم إلَىٰ الآن كثير من عقائد المشركين وأوهامهم التي ورثوها عن أديان آبائهم الكافرين، وأقصىٰ ما حدث فيهم من الفرق بعد إسلامهم أن أخرجوا من تاريخ الإسلام آلهة لهم جديدة، وكأن الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل، واختاروا لأعمالهم الوثنية القديمة أسماءً جديدة من المصطلحات الإسلاميَّة، وكأن العمل علىٰ ما كان عليه من قبل، وإنما تغير قشره، ولونه الظاهري، فإن أردتم الشاهد علىٰ ما أقول، فسرحوا النظر فيما عليه حالة الناس الدينية فِي بقعة من بقاع بلادكم، ثم ارجعوا إلىٰ التاريخ وابحثوا عن الدين الذي كان الناس يدينونه فِي هذه البقعة، قبل أن يأتيهم الإسلام، فستعلمون أنه

توجد هناك كثير من العقائد والأعمال التي تشبه عقائد الدين المنقرض وأعماله، إلا أنها في شكل آخر ولون غير لونه.

فالبقاع التي كانت فيها الديانة البوذيَّة قبل الإسلام مثلًا؛ كان النَّاس يعبدون فيها آثار بوذا، فهنا سنٌّ من أسنانه، وهناك عظم من أعظمه، وثمة شيء آخر من أشيائه يعبده النَّاس ويتبركون به، وإنكم لتجدون اليوم أنَّ النَّاس في هذه البقاع يعاملون مثل هذه المعاملة شعرًا من أشعار النبي ﷺ، أو أثرًا من آثار قدمه، أو يتبركون بآثار بعض صالحي المسلمين وعابديهم، وكذلك إذا استعرضتم كثيرًا من الرسوم والعادات المتفشية اليوم ببعض القبائل المتوغلة في إسلامها، ثم نظرتم ما يروج في البطون غير المسلمة لهذه القبائل نفسها من الرسوم

والتقاليد، فقليلًا ما تجدون فارقًا بين هذه وتلك.

أفليس ذلك مما يشهد شهادة ناطقة بأن الذين كان بيدهم زمام أمر المسلمين وشؤونهم الاجتماعيَّة في القرون السالفة قصّروا في أداء واجبهم أيّما تقصير، إذ لم يمدوا يد التعاون والمساعدة إلَىٰ الذين بذلوا جهودهم فِي نشر الإسلام بجهودهم الفرديَّة». انتهىٰ.

❋ **أقول:**

لقد عرف المودودي واقع بلاده معرفة كاملة، وعرف تاريخها، وعرف مدىٰ ارتباط وتأثر عقائد المسلمين بعقائد أسلافهم، بل ومعاصريهم من الوثنيين، وألقىٰ اللوم علىٰ حكَّام المسلمين فِي الماضي؛ حيث قصّروا فِي نشر الإسلام، وقصّروا في مساندة الجهود الفرديَّة في نشر الإسلام، وفِي تربية الداخلين فِي الإسلام،

وكان فِي هذا الإدراك العميق ما يحفزه بقوّة إلىٰ سلوك منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ التوحيد وإخلاص العبادة لله، والتركيز علىٰ عقائد المسلمين فعلًا؛ حتىٰ يتم إنقاذهم من براثن الشرك الهندوكي والبوذي وما شابهه، بل كان عليه إن لم يتزعم دعاة التوحيد أن يساندهم بكل ما أوتي من قوّة؛ بالدعوة والتأليف وتجنيد أتباعه في هذا الميدان، بدل أن يسخر كلّ طاقاته الهائلة في ميدان السياسة والاقتصاد، فلو ماتوا مؤمنين بكلّ كتبه في السياسة والاقتصاد أينقذهم من الوثنيَّة التي هم فيها؟! ثمّ هل ينقذهم من النَّار؟!

ثم بمن سيقيم الإمامة الصالحة الراشدة، وهو قد فتح الباب علىٰ مصراعيه للدخول فِي جماعته وتنظيمه، والباب مفتوح للبريلوي القبوري الغالي، وللرافضي وللديوبندي

والسلفي[١]؛ حيث يختلط المرضىٰ بالأصحاء، فتكون النتيجة كما هو الواقع أن تتغلب الأمراض فتفتك جراثيمها

(١) وهذا الذي نقوله أمر مشهور، ولمن لا يعرف ذلك أسوق الدليل الآتي:

نشرت مجلة «جنك» الباكستانية مقابلة شخصيَّة، قام بها محمود الشام مع نائب أمير الجماعة الإسلاميَّة في كراتشي البروفسور غفور أحمد فِي (٢٥إبريل١٩٨٤م)، هذا نصّ ترجمتها:

«ماذا ترون في معارضة النَّاس للجماعة الإسلاميَّة علىٰ الأسس المذهبيَّة؟

البروفسور غفور أحمد: نعم، حقًّا إن الجماعات المذهبيَّة تعارضنا في أمور كثيرة، بل يبدو أنها لا تظننا مسلمين، ولكن علىٰ الجماعات الدينيَّة أن لا تجعل الدين وسيلة للخلافات والتفرقة، والوضع القائم اليوم أنَّ الخلافات تنشب فِي المساجد – أيضًا – علىٰ أساس العقيدة، ويصل الأمر إلىٰ الجدل والخصام، أما موضوع عقائد الجماعة الإسلاميَّة فإن فيها أفرادًا من أهل الحديث والديوبنديين والشيعة والبريلويين وأنا أيضًا بريلوي، وكون المرء بريلويًّا لا يمنع الانضمام إلىٰ الجماعة الإسلاميَّة».

بالأصحّاء، فعلىٰ أقل تقدير أن تصاب ألسنتهم وأقلامهم بالشلل عن الدعوة والكتابة في مجال التوحيد والسنَّة، ومحاربة البدع والشرك، وذلك من آثار هذا التجميع والمناهج التي وضعت له.

فهل أمثال هؤلاء سيطهرون الأرض من الفساد، ويقيمون نظام الإمامة الراشدة الصالحة، ويحققون ما لم يقم به أصحاب محمد ﷺ بعد الخلفاء الأربعة وأبناء المهاجرين والأنصار، الذين يرىٰ الأستاذ المودودي – متابعة لألدّ أعداء الصحابة ومن والاهم – أن الحكم بعد عثمان وعلي بدأ يقوم علىٰ قواعد الجاهليَّة بدلًا من قواعد الإسلام؟!

فإذا كان من ربّاهم رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون وصحابته الأكرمون؛ قامت حكومتهم علىٰ قواعد الجاهليَّة،

فماذا ينتظر من جماعة أخلاط تضم أغرب الاتجاهات وأبعدها عن هدي الأنبياء؟!

ب - ويقول: «ومن دواعي الأسف أننا نشاهد النَّاس اليوم جميعًا - المسلمين منهم وغير المسلمين - غافلين عن هذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا.

أمّا المسلمون؛ فلأنهم يعدّونه غاية سياسيَّة بَحتة، ولا يكادون يفطنون لمكانته وأهميَّته في الدين، وأمّا غير المسلمين فبما نشئوا عليه من التعصُّب علىٰ الإسلام، ولجهلهم وقلّة معرفتهم بتعاليمه؛ لا يعلمون أصلًا أن قيادة الفجار والفساق إنّما هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري، وأنَّ سعادة البشر وغبطته إنّما تتوقف علىٰ أن يكون زمام أمور الدنيا

بأيادي الصالحين العادلين»[1].

أقول: ما رآه الأستاذ غايته وأتباعه، ومطمح أبصارهم؛ هو شيء مهم، ولكنَّه غير غاية الأنبياء، وأعظم منها وأجدىٰ منها الاهتمام بهداية الناس ودعوتهم جميعًا - قويّهم وضعيفهم - إِلَىٰ التوحيد.

وقوله: «إن قيادة الفجار هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري».

أقول: قد تكون هي من الأسباب، وإلىٰ جانبها أسباب أخر هي كفر الشعوب بالله، وإشراكها به، وفسوقها عن هداية الأنبياء.

قال تعالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا

(١) الأسس الأخلاقيَّة (ص ١٦، ١٧).

فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ [الطلاق: ٨].

فبظلم النَّاس - حكامهم ومحكوميهم وأغنيائهم وفقرائهم -؛ يصبّ الله عليهم الكوارث والنكبات من الحروب المدمّرة، والأمراض الفتاكة، والمجاعات المهلكة، ونزع البركات من الأرض، وغيرها.

ومع هذا فعبادة الأوثان الموجودة في الهند وغيره؛ أبغض إِلَىٰ الله وإِلَىٰ أنبيائه والمصلحين من ظلم الحكَّام علىٰ فظاعته وبغضه إِلىٰ الله.

ولذا ترىٰ إبراهيم يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وفي وقته أظلم الحكّام وأعتاهم وأفسدهم، لكنَّه جعل غايته الدعوة

إِلَىٰ التوحيد ومحو الشرك، فإذا ما ظهرت كلمة التوحيد وأَفَل صوت الشرك؛ صلح حال الناس حكَّامًا ومحكومين.

ج - ويقول أيضًا: «فإن أراد أحد اليوم أن يطهر الأرض، ويستبدل فيها الصلاح بالفساد، والأمن بالاضطراب، والأخلاق الزكيَّة بالإباحيَّة، والحسنات بالسيئات؛ لا يكفيه أبدًا أن يدعوهم إِلَىٰ الخير، ويعظهم بتقوىٰ الله وخشيته، ويرغبهم فِي الأخلاق الحسنة، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الإنسانيَّة الصالحة ما يتمكن من جمعه، ويجعل منها كتلة متضامنة وقوّة جماعيّةً، تمكنه من انتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا، وإحداث الانقلاب المنشود في زعامة الأرض وإمامتها»[1].

(١) الأسس الأخلاقيَّة (ص ١٧، ١٨).

أقول – رحم الله المودودي –: لم يُدْلِ نبي من الأنبياء بمثل هذه التصريحات القويَّة، التي تكلّفه وأتباعه بانتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا، لقد ألقىٰ عبئًا كبيرًا علىٰ أناس ضعفاء!

انظر يا أخي، من رحمة الله بالأنبياء كان الله يبعث كلّ نبي إِلَىٰ قومه خاصّة، ويقول له: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾؛ فإذا وضع الشاب نصب عينه القيام بهذه المسؤوليَّة الضخمة التي لم يكلف بها الأنبياء؛ كيف تكون حياته؟! كيف يعيش فِي جحيم لا يطاق؟! وسبب ذلك زلّة عالم رسم لنفسه منهجًا جديدًا لم يأت به الأنبياء، ولا دلّ عليه كتاب ولا سنَّة، ولا عرفه المسلمون سابقهم ولا لاحقهم.

الأنبياء جاءوا لهداية البشر إِلَىٰ الخير، وإنقاذهم من براثن الشرك وأسبابه، ولم يتركوا هذا ويشتغلوا بجمع

عناصر الإنسانيَّة الصالحة لانتزاع السلطة وأزمة الأمور من قادة موكب الحضارة في الدنيا، بل يربون النَّاس علىٰ العقيدة والخير؛ فإذا استجاب لهم النَّاس ووحدت لهم الأرض التي ينطلقون منها للجهاد في سبيل الله؛ جاهدوا النَّاس ليقولوا: «لا إله إلا الله». ويعلنوا كلمة التوحيد، ويتبرءوا من الشرك وأوضاره وأقذاره، وإن لم يصل أتباعهم إلىٰ هذا المستوىٰ لم يطلقوا مثل هذه التصريحات والتهديدات لجبابرة الأرض، ولم يعرِّضوا أتباعهم الضعفاء للويلات والنكبات، ولو كانوا يحملون أعظم أمانة، ويدعون إلىٰ أسمىٰ المبادئ وهو التوحيد.

فكيف بالمساكين الذين أعرضوا عن منهج الأنبياء، وتركوا أعظم الأدواء وهو الشرك يفتك بالأمم، ولم يدخل هذا فِي حسابهم، ثمّ يريدون أن يجمعوا من

العناصر الصالحة كتلة متضامنة وقوَّة جماعيَّة؛ ليصلوا بهم إِلَىٰ ما رسموه لأنفسهم وجعلوه مطمح أبصارهم؟!!

فقل لي بربّك: من أين نأتي بهذه العناصر الصالحة ونحن قد تخلينا عن عقيدة الأنبياء ومنهجهم فِي التربية والدعوة؟!! أتهبط علينا من السماء؟!!

د - **ثمّ يقول الأستاذ المودودي**: «إن مسألة القيادة والزعامة إنما هي مسألة المسائل فِي الحياة الإنسانيَّة، وأصل أصولها؟ وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنها ليست مستحدثة فِي هذا العصر، وإنَّما هي مقرونة ومنوط بها منذ أقدم الأزمنة، وناهيك من شاهد بالقول السائر: «الناس علىٰ دين ملوكهم»[1].

(١) أعجب لهذا الاستدلال علىٰ أخطر مسألة (مسألة المسائل) بقول سائر، وكلام لا يدري قائله ظنه حديثًا.

ومن ثمَّ تكرر فِي الحديث: «إن علماء الأمَّة وكبراءها هم المسئولون عن إصلاح شأنها وفساد أمرها»[1].

هكذا فِي نظر هذا المفكر الكبير! وأشهد الله لو أنني سمعتها من إنسان صادق لظننته واهمًا علىٰ هذا المفكر، ولكن ماذا أقول؟ وماذا يقول غيري وهو فِي كتابه «الأسس الأخلاقيَّة للحركة الإسلاميَّة» الذي ألقاه محاضرة فِي جمع من أعضاء الجماعة الإسلاميَّة، وأنصارها والمتأثرين، منذ أكثر من أربعين سنة، ويتداوله النَّاس وخصوصًا أتباعه بكل حفاوة وتقدير منذ ذلك التاريخ إِلَىٰ يومنا هذا.

إن مسألة المسائل هي ما جاء به جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وهي مسألة التوحيد والإيمان، كما فِي هذه الآيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ

(١) الأسس الأخلاقيَّة (ص٢١، ٢٢).

إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

هذه هي مسألة المسائل، ومن أجلها دار الصراع بين الأنبياء والأمم الضالّة، وقد سقنا أدلتها الكثيرة فيما سبق، فارجع واقرأ.

هـ - ثمّ يقول: «غاية الدين الحقيقيَّة إقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة»[1].

أقول: إنَّ غاية الدين الحقيقية، والغاية من خلق الجنّ

(١) الأسس الأخلاقيَّة (ص٢٢).

والإنس، والغاية من بعثة الرسل وإنزال الكتب؛ هي عبادة الله وإخلاص الدين له.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. [الذاريات: ٥٦]

وحيث إن هذا هو تصوّر الأستاذ المودودي للقيادة والزعامة والإمامة، وأنها هي غاية الدين الحقيقيَّة، وهي مسألة المسائل فِي الحياة الإنسانيَّة وأصل أصولها؛ فمن المناسب أن أسوق هنا ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ ابن المطهر الحلي أحد الروافض الإماميَّة الذي بالغ في شأن الإمامة وغلا فيها.

قال شيخ الإسلام: «قال المصنف الرافضي: أمَّا بعد؛ فهذه رسالة شريفة ومقالة لطيفة اشتملت علىٰ أهم المطالب فِي أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين، وهي

مسألة الإمامة، التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة، وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان، والتخلص من غضب الرحمن... »[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيقال: الكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن يقال: إن القائل: إنَّ مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين؛ كاذب بإجماع المسلمين سنيهم وشيعيهم، بل هو كفر؛ فإنّ الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام.

فالكافر لا يصير مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله

(١) المنهاج (١/ ٢٠).

وأنَّ محمدًا رسول الله، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ الكفار أوَّلًا، كما استفاض في الصحاح وغيرها أنه قال: «**أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**».

وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥].

وكذلك قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه، وكذلك كان النبي ﷺ يسير في الكفار، فيحقن دماءهم بالتوبة من الكفر، لا يذكر لهم الإمامة بحال.

وقد قال تعالى بعد هذا: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]. فجعلهم إخوانًا في الدين بالتوبة؛ فإنَّ الكفار في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا أسلموا أجرىٰ عليهم أحكام الإسلام، ولم يذكر لهم الإمامة بحال.

ولا نقل هذا عن الرسول أحد من أهل العلم، لا نقلًا خاصًّا ولا عامًّا، بل نحن نعلم بالاضطرار أنَّ النبي ﷺ لم يكن يذكر للنَّاس إذا أرادوا الدخول فِي دينه الإمامة لا مطلقًا ولا معينًا، فكيف تكون أهم المطالب فِي أحكام الدين ثمَّ...

الثاني: أن يقال: الإيمان بالله ورسوله فِي كلّ زمان ومكان؛ أعظم من مسألة الإمامة، فلم تكن في وقت من الأوقات لا الأهم ولا الأشرف.

الثالث: أن يقال: فقد كان يجب بيانها من النبي ﷺ

لأمته الباقين بعده، كما بيّن لهم أمور الصلاة والصيام والزكاة والحج، وعيّن أمر الإيمان بالله وتوحيده واليوم الآخر. ومن المعلوم أنه ليس بيان مسألة الإمامة في الكتاب والسنَّة ببيان هذه الأصول».

ثمَّ قال: «وأيضًا فمن المعلوم أنَّ أشرف مسائل المسلمين، وأهم المطالب في الدين؛ ينبغي أن يكون ذكرها في كتاب الله تعالىٰ أعظم من غيرها، وبيان الرسول لها أولىٰ من بيان غيرها، والقرآن مملوء بذكر توحيد الله تعالىٰ، وذكر أسمائه، وصفاته، وآياته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقصص، والأمر والنهي، والحدود والفرائض، بخلاف الإمامة، فكيف يكون القرآن مملوءًا بغير الأهم الأشرف»[1].

---

(١) المنهاج (١/ ٢١).

«وأيضًا فإن الله تعالىٰ قد علّق السعادة بها لا ذكر فيه للإمامة، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ ...﴾.

إِلَىٰ قوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

[النساء: ١٣، ١٤]

فقد بيّن الله فِي القرآن أن من أطاع الله ورسوله؛ كان سعيدًا فِي الآخرة، ومن عصىٰ الله ورسوله وتعدىٰ حدوده، كان معذّبًا، وهذا هو الفرق بين السعداء والأشقياء، ولم يذكر الإمامة.

فإن قال قائل: إنّ الإمامة داخلة في طاعة الله ورسوله.

قيل: نهايتها أن تكون كبعض الواجبات؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما يدخل في طاعة الله ورسوله، فكيف تكون هي وحدها أشرف مسائل المسلمين وأهم مطالب الدين؟!» [1].

قال شيخ الإسلام: «الوجه الخامس: قوله: «وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود فِي الجنان»».

فيقال: من جعل هذا من أركان الإيمان إلا أهل الجهل والبهتان.

وسنتكلّم - إن شاء الله - علىٰ ما ذكره من ذلك، والله تعالىٰ وصف المؤمنين وأحوالهم، والنبي ﷺ قد فسّر الإيمان وذكر شعبه، ولم يذكر الله ولا رسوله الإمامة فِي

(١) المنهاج (١/ ٢٨، ٢٩).

أركان الإيمان، ففي الحديث الصحيح حديث جبريل، لما أتىٰ النبي ﷺ فِي صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له:

«**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، قال: والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**»، ولم يذكر الإمامة. وقال: «**والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

وهذا الحديث متفق علىٰ صحته متلقىٰ بالقبول، أجمع أهل العلم بالنقل علىٰ صحته.

وقد أخرجه أصحاب الصحيح من غير وجه؛ فهو من المتفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي أفراد مسلم

من حديث ابن عمر.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

فشهد لهؤلاء بالإيمان من غير ذكر الإمامة.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]؛ فجعلهم صادقين فِي الإيمان من غير ذكر للإمامة...».

إلىٰ أن قال: «وأيضًا فنحن نعلم بالاضطرار من دين محمد بن عبد الله ﷺ أنّ الناس كانوا إذا أسلموا لم يجعل

إيمانهم موقوفًا علىٰ معرفة الإمامة، ولم يذكر لهم شيئًا من ذلك، وما كان أحد أركان الإيمان؛ لا بد أن يبينه الرسول لأهل الإيمان؛ ليحصل لهم به الإيمان.

فإذا علم بالاضطرار أنَّ هذا مما لم يكن الرسول يشترطه فِي الإيمان؛ علم أنَّ اشتراطه فِي الإيمان من أقوال أهل البهتان.

فإن قيل: قد دخلت في عموم النصّ، أو هي من باب ما لا يتم الواجب إلا به، أو دلّ عليها نصّ آخر.

قيل: هذا كلّه لو صحّ لكان غايته أن تكون من بعض فروع الدين، لا تكون من أركان الإيمان؛ فإن ركن الإيمان ما لا يحصل الإيمان إلّا به؛ كالشهادتين؛ فلا يكون الرجل مؤمنًا حتىٰ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فلو كانت الإمامة ركنًا في الإيمان لا يتم إيمان أحد

إلا به؛ لوجب أن يبينه الرسول ﷺ بيانًا عامًّا قاطعًا للعذر، كما بَيَّن الشهادتين، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، فكيف ونحن نعلم بالاضطرار من دينه أن الذين دخلوا في دينه أفواجًا؛ لم يشترط علىٰ أحد منهم في الإيمانِ الإيمانَ بالإمامة لا مطلقًا ولا معيّنًا؟!»[1].

أقول: لقد أطلت النفس في نقل كلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإمامته وجلالته، ولتشابه دعوىٰ المودودي ودعوىٰ الرافضي، بل إن دعوىٰ المودودي أعظم؛ إذ الشيعي يقول: «إنها أهم المطالب فِي أحكام الدين» ولم يقل: فِي أصول الدين.

ويقول: «وهي أحد أركان الإيمان». أما المودودي فقد جعلها: «مسألة المسائل فِي الحياة الإنسانيَّة وأصل

(١) المنهاج (١/ ٣٢، ٣٣).

أصولها»، وجعلها: «غاية الدين الحقيقيّة».

*** ولنلق نظرة على أقوال العلماء فِي حكم الإمامة:**

قال الإمام أبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإمامة موضوعة لخلافة النّبوّة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها فِي الأمّة واجب بالإجماع.

وإن شذّ عنهم الأصم واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟

فقالت طائفة: وجبت بالعقل؛ لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم... وقالت طائفة: بل وجبت بالشرع دون العقل؛ لأنّ الإمام يقوم بأمور شرعيَّة قد كان مجوزًا فِي العقل أن لا يرد التعبّد بها، فلم يكن العقل موجبًا لها»[1].

(١) الأحكام السلطانية (ص: ٥، ٦).

وقال القاضي أبو يعلىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نصبة الإمام واجبة، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي: «الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر النَّاس».

والوجه فيه: أن الصحابة لما اختلفوا في السقيفة، فقالت الأنصار: منَّا أمير ومنكم أمير، ودفعهم أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقالوا: إنَّ العرب لا تدين إلّا لهذا الحيّ من قريش. ورووا فِي ذلك أخبارًا؛ فلولا أنَّ الإمامة واجبة لما ساغت تلك المحاورة وتلك المناظرة عليها، وقال قائل: «ليست بواجبة لا فِي قريش ولا فِي غيرهم»[1].

وقال إمام الحرمين: «مسألة الإمامة من الفروع»[2].

فأنت ترىٰ دعواهم في الإمامة أنها من الفروع، وأنها

(١) الأحكام السلطانية (ص١٩).

(٢) مغيث الخلق (ص ٩).

لا تتعدىٰ أن تكون وسيلة؛ فهي لحراسة الدين وسياسة الدنيا، وفي دليل وجوبها نزاع أهو العقل أم الشرع؟

ونحن نقول بوجوبها؛ فالقضية التي هذا شأنها، وقد اختلف فِي أدلَّة وجوبها؛ كيف يقال فيها: إنها غاية الدين الحقيقيَّة، وغاية مهمَّة الأنبياء؟!

ج - ويقول المودودي: «ولأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله - عليهم السلام - في هذه الدنيا؛ أن يقيموا فيها الحكومة الإسلاميَّة، وينفذوا فيها ذلك النّظام الكامل للحياة الإنسانيَّة الذي جاءوا به من عند الله»[١].

* **أقول:** أولًا: إنَّ الحديث عن رسل الله وأنبيائه؛ لا

---

(١) تجديد الدين (ص٣٤).

يجوز أن يكون عن طريق الاستنتاج والاستنباط السياسي، وقصص الأنبياء وتاريخهم من الأمور الغيبيَّة التي لا يجوز الخوض فيها إلّا في حدود الوحي الذي أوحاه الله إلَىٰ محمد ﷺ.

قال تعالَىٰ فِي أوَّل قصَّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالَىٰ فِي آخر قصَّة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالَىٰ عقب قصَّة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

ويشتد هذا المنع ويزداد حرمة إذا خالف هذا الاستنتاج ما أخبر الله به عنهم؛ فقد بيَّن الله غايتهم إجمالًا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وتحدّث عن بعضهم تفصيلًا، كنوح وإبراهيم وهود وصالح، وقد تحدَّثنا عن منهجهم سابقًا، وسردنا الآيات التي تحدّد غاياتهم، وهي تطابق تمامًا ما ذكره الله عنهم إجمالًا من الدعوة إِلَىٰ التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره، مع الدعوة إِلَىٰ الخير، وليس فِي القرآن ولا في السنَّة ما يؤيد ما زعمه المودودي فِي قوله: «لأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله - صلوات الله عليهم وسلامه - في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلاميّة»، أو الإلهيَّة كما نقلها الندوي عن المودودي،

فمن كانت عنده أدلّة واضحة علىٰ هذه القضيَّة الخطيرة من الكتاب والسنّة؛ فليأت بها وعلينا الإيمان والاتّباع.

ثانيًا: عاش الأستاذ المودودي فِي عصر الصراع السياسي والحزبي، وبلغ التنافس والصراع علىٰ الحكم أوجه فِي الغرب والشرق، وبحكم قيادته وريادته السياسيَّة والحزبيَّة خيل إليه أنَّه لا بد أن يكون الأنبياء أشدّ النَّاس عزمًا وجدًّا وجهادًا فِي الوصول إِلىٰ الحكم، وإحراز مقاليد السلطة.

*** وكلامه الآتي يؤكد ما أقول:**

قال: «نوعيّة عمل النبيّ، ولتشييد هذه الحضارة والمدنيّة فِي الأرض؛ أرسل الله رسله تترىٰ، وذلك بأن كل حضارة في هذا العالم - عدا الحضارة الرهبانيَّة جاهليَّة كانت أم إسلاميَّة -؛ إذا كان بيدها نظريَّة جامعة بشأن الحياة الإنسانيَّة، ومنهاج شامل لتدبير أمور هذه

الدنيا؛ فإنها تقتضي بحكم طبيعتها أن تستولي علىٰ الحكم وتمتلك أزمّة الأمور، وتشكل الحياة الإنسانيَّة علىٰ طرازها المخصوص.

وبدون إرادة الحكم، لا معنىٰ للدعوة إلىٰ نظريَّة ما، ولا معنىٰ للتحليل والتحريم والتشريع.

أمّا الراهب فِي هذه الدنيا؛ فلا يريد أن يمارس شؤونها، وإنما همه الشاغل أن يبلغ غاية نجاته الوهميَّة، بسلوك طريقة معيّنة تمر به حائدة عن الدنيا وما فيها، ولذلك لا يحتاج إلىٰ السلطة والحكم، ولا يطلب من ذلك شيئًا، ولكنّ الذي يأتي داعيًا إلىٰ طريق مخصوص لمعالجة شؤون هذه الدنيا، ويعتقد أنّ في اتباع الإنسان لهذا الطريق فلاحه ونجاحه؛ فلا بدّ أن يسعىٰ ويجتهد لإحراز مقاليد السلطة والحكم؛ فإنه ما لم يتمكن من

القوة المطلوبة لتنفيذ طريقته المخصوصة؛ لا يمكن أن تقوم لها قائمة في عالم الواقع».

لقد درس المودودي الحضارة والمدنيَّة المعاصرة بكلّ شعبها وتفاصيلها أو غالبها، واعتقد أنَّ للأنبياء حضارة ومدنيَّة تضم مثل كلّ هذه الشُّعب والتفاصيل الموجودة في التنظيمات المدنيَّة الحاليَّة، إلّا أنها بشعبها وتفاصيلها تختلف عن المدنيات والحضارات الجاهليَّة، ثمّ بنىٰ علىٰ هذا الاعتقاد أن كل حضارة بيدها نظريّة جامعة بشأن الحياة، ومنهاج شامل لتدبير أمور الدنيا؛ فإنها تقتضي بحكم طبيعتها أن تستولي علىٰ الحكم وتمتلك أزمّة الأمور.

والأنبياء جاءوا بحضارة ومدنيّة من هذا النوع؛ فلا بدّ أن تستولي حضارتهم ومدنيّتهم علىٰ الحكم وتمتلك أزمّة الأمور، ولا بدّ أن يسعوا ويجتهدوا لإحراز مقاليد

السلطة، وإذن: «فما زالت الغاية المنشودة من رسالة الأنبياء في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلاميّة، وينفذوا فيها ذلك النّظام الكامل للحياة الإنسانيَّة الذي جاءوا به من عند الله».

ولعلَّه يتضح للقارئ أن هذه التقريرات قائمة علىٰ القياسات والاستنتاجات الفكريَّة والسياسيَّة، وليست قائمة علىٰ البراهين القرآنيَّة والنبويَّة، والمجال مجال الوحي الإلهي لا مجال الاكتشافات الفكريَّة والسياسيَّة.

*** وقد خيّل إليه أن الناس قسمان فقط:**

* إمّا راهب همّه الشاغل أن يبلغ غاية نَجاته الوهميّة... إلخ، وحاشا الأنبياء أن يكونوا من هذا النوع، وقد - يشبههم في نظر السياسيين - العلماء والدعاة المعاصرون الذين لا يركبون أمواج السياسة ولا يخوضون غمارها،

وإنّما يسلكون منهج الأنبياء فِي الدعوة إِلَىٰ الله إِلَىٰ توحيده وإخلاص العبادة له، والتحذير من الشرك والفسق والبدع، بالحكمة والموعظة الحسنة، وليسوا بمعصومين من الخطأ.

* وإمّا صاحب طموح سياسي وفكر حضاري يريد أن ينهض بأمّته إِلَىٰ أرقىٰ مستويات الحضارة، ويريد أن يؤسس لأمَّته أقوىٰ دولة[1]. والأنبياء أسمىٰ النَّاس وأرقاهم فلا بدّ أن يكونوا من هذه الطبقة الممتازة.

وفاته أنّ الأنبياء قسم مستقل، لا يدخل فِي هؤلاء ولا في أولئك، هم أناس متميّزون منزهون عن حماقات الرهبان وجهلهم، وعن أطماع السياسيين ومكرهم وأساليبهم الشيطانيّة التي يتوصَّلون بها إِلَىٰ الحكم، فهم أنزه النَّاس نفوسًا عن المطامع، وأرقىٰ النَّاس عقولًا،

(١) ولو كانت خاوية من التوحيد تعج بأنواع البدع والخرافات.

وأزكاهم أخلاقًا، وأطهرهم عنصرًا وأنسابًا اختارهم الله لهداية البشر، وإنقاذهم من الضلال، فخاضوا ميادين الدعوة إِلَىٰ الله بكلّ إخلاص وتجرّد، لا يريدون علىٰ ذلك أجرًا من مال أو جاه أو ملك، إنَّما يريدون وجه الله والدار الآخرة فقط، وصبروا علىٰ صنوف من الأذىٰ التي لا يحتملها سواهم.

ويقول: «ولذلك سعىٰ كلّ نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي، فمنهم من اقتصرت مساعيه علىٰ تمهيد السبيل وإعداد العدد كإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم من أخذ فعلًا في الحركة الانقلابيَّة، ولكن انتهت رسالته قبل أن تقوم علىٰ يده الحكومة الإلهيَّة كعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنهم من بلغ بهذه الحركة منازل الفوز والنجاح كموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسيدنا محمد ﷺ».

* **أقول: أولًا:** أعتقد أنّ مثل هذا التعبير: «ولذلك سعىٰ كلّ نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي... »[1]. ليس من العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ فهو من أعظم الأمور الغيبيَّة التي أخفاها الله عن رسوله محمد ﷺ فكيف يعلمها غيره؟!

فإن عدد الأنبياء والرسل يزيد علىٰ عشرين ومائة ألف، ولم يقص الله علينا إلّا قصَّة حوالي خمسة وعشرين نبيًّا ورسولًا في القرآن، قال تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

فكيف يستجيز المسلم أن يصدر هذا الحكم المطلق علىٰ كل الأنبياء، وقد قال تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

(١) تجديد الدين (ص ٣٥).

عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]؟!

ثانيًا: لا يجوز شرعًا أن يطلق علىٰ دعوات الأنبياء الحكيمة أنها محاولات لانقلابات سياسيَّة؛ لأنَّ الانقلابات السياسيَّة تقوم علىٰ المكايد والدسائس والمؤامرات التي لا يقوم بها إلّا أناس لا يبالون بسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل والإفساد فِي الأرض.

ثالثًا: أنَّ هذا التفسير لمهمَّة الأنبياء وغايتهم؛ في غاية الخطورة؛ لتأثيره الخطير علىٰ شباب الأمَّة المساكين؛ لأنَّهم قد يقولون: إذا كان الأنبياء زعماء سياسيين، وقادة حركات انقلابيَّة؛ فلماذا لا يكون أتباعهم أيضًا سياسيين انقلابيين، ويسلكون إلىٰ غايتهم ما تتطلبه الانقلابات السياسيَّة من التخطيط والتدابير؟!! وهل سيكونون

معصومين في إحداث الانقلابات السياسيَّة؟!

رابعًا: لا أدري ما يريد الأستاذ المودودي بقوله: «فاقتصرت جهود بعضهم علىٰ تمهيد السبيل وإعداد العدد»، وحكىٰ الندوي عنه: «علىٰ تهيئة الأرض كسيدنا إبراهيم»، هل يريد أنه وضع خططًا سياسيَّة وانقلابيَّة لمن يأتي بعده من الأنبياء والقادة السياسيين، أو يريد شيئًا آخر؟!

وعلىٰ كل حال هذا يعطي صورة غريبة عجيبة عن الأنبياء برَّأ الله الأنبياء منها ونزَّههم عنها.

إن قصّة إبراهيم كانت جهادًا فِي سبيل التوحيد، وفِي تحطيم الأوثان بالحجة والبرهان، وباليد عندما أُلجئ إلىٰ ذلك، وبعد أن بلّغ البلاغ المبين وأقام الحجج القاهرة الدامغة علىٰ المشركين المعاندين حكومة وشعبًا، قام بتحطيم أوثانهم فأخذهم الغضب لها؛ فأججوا له نارًا

ثمَّ ألقوه فيها؛ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، فأنقذه الله من كيدهم ونجاه من مكرهم؛ ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨، ٦٩].

ثمَّ لمّا بلغ عنادهم مداه، وانقطع أمله من استجابتهم لدعوة الله؛ تركهم وغادرهم مهاجرًا إلَىٰ الله؛ ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. [العنكبوت: ٢٦]

ولم يذكر الله عنه شيئًا من الانقلابات السياسيَّة ولا إعداد العدد ولا تمهيد السبيل إليها، ثم كانت هجرته إلىٰ الشام، وبعد زمن ذهب بزوجته هاجر وابنه إسماعيل إلىٰ مكَّة، وهي آنذاك خالية من السكان ومن كلّ أسباب الحياة حتىٰ الماء، وترك زوجته وولده بإذن من الله وعاد إلىٰ الشام، فانطلق حتىٰ إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرونه؛

استقبل بوجهه البيت، ثمَّ دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ثمّ بين الغاية من ذلك فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد زار إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ابنه إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مرّتين فلم يجده؛ إذ يصادف خروجه لابتغاء الرزق، فيعود إبراهيم أدراجه، ثمّ زاره في الثالثة فوجده، فلما رآه قام إليه فصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثمّ قال: يا إسماعيل! إنَّ الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربّك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا. وأشار

إلىٰ أكمة مرتفعة علىٰ ما حولها. قال: فعند ذلك رفعَا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فهذه قصّة إبراهيم، هل يؤخذ منها أنه كان يمهّد السبيل، ويعد العدد؛ لإحداث انقلاب سياسي؟!!

ومتىٰ قام عيسىٰ بالحركة الانقلابية؟!! وما هو البرهان علىٰ هذا القول الخطير؟!!

وكيف لم يبلغ إلا موسىٰ ومحمد فقط إِلَىٰ منازل الفوز والنجاح مع أنه قد سعىٰ كلّ نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي - كما يزعم المودودي -؟!! فكيف لم يبلغوا إِلَىٰ منازل الفوز والنجاح وهم يزيدون علىٰ عشرين ومائة ألف؟!!

ألا ترىٰ معي إِلَىٰ ثمار الغلو المرَّة، وإلىٰ نتائجه الصعبة الخطيرة التي تزلزل الإيمان والعقيدة؟! فإذا كان اثنان فقط من أعداد الأنبياء الهائلة؛ قد وصلا إلىٰ منازل الفلاح والفوز؛ أفلا يحكم القارئ الكافر والضعيف الإيمان والجاهل علىٰ الأنبياء الآخرين بالفشل والخسران؟! وحتىٰ المؤمن القوي ألا يخاف عليه أن يهتز إيمانه ويضطرب؛ إذ كيف ينجح الكفرة من الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وغيرهم من الكفرة فِي الماضي والحاضر، ويصلون إِلَىٰ ما يصبون إليه من إقامة الدول العظيمة والحضارات الراقية، ولم تصل جهود الأنبياء إِلَىٰ منازل الفوز والنجاح؟!!

وقد أخبر الله كيف انتصر الأنبياء بعد أن دعوا الناس إلىٰ التوحيد والخير، وحذَّروهم من الشرك والشر، وأنذروهم عذاب الله.

قال تعالىٰ عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٠ - ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٤ - ١٠].

فهذه انتصارات ساحقة للمرسلين، وفوز وفلاح مبين، وهزائم وخسائر ودمار وتتبير للكافرين.

فبهذه الموازين والمقاييس الربانيّة الحقَّة الأنبياء جميعًا وصلوا إِلَىٰ منازل الفوز والفلاح؛ لأنّهم جميعًا أدّوا واجبهم وبلَّغوا رسالات ربّهم، وكانت نهاية أعدائهم ما قصّه الله عنهم، وبالمقاييس السياسيّة أو الخياليّة، أو قل ما شئت، لم ينجح إلا محمد وموسىٰ - عليهما السلام -!!

هذا نقوله علىٰ منطق هؤلاء، وإلّا فنحن نبرئ موسىٰ ومحمدًا - عليهما الصلاة والسلام - من السعي لإحداث انقلاب سياسي، وننزه نجاحهما وفلاحهما أن يكون قائمًا علىٰ هذا الأساس.

ومما يؤخذ علىٰ هذا الاتجاه عمومًا؛ أنّهم قد وضعوا قاعدة وهي: أنَّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وهي قاعدة عظيمة[1]

(١) لكن مع الأسف قد غلبوا عليها قاعدة أخرىٰ، وهي: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، وهي عبارة =

لو طبقت علىٰ منهج السلف الصالح بدون غلو. لكنك ترىٰ القوم يخالفونها مخالفة شديدة مع الأسف؛ وذلك أنَّ تعلقهم الشديد بإقامة الدولة الإسلامية - ويسمون ذلك بالدعوة إلىٰ الحاكميَّة -؛ قد شغلهم عن الاهتمام بأصل الإسلام الذي هو التوحيد بأنواعه، ولم يدركوا إلىٰ الآن بسبب ذلك الانشغال أنَّ موجبات الاهتمام بالدعوة إِلَىٰ التوحيد؛ قائمة علىٰ أشدها كما هي فِي عهود النبوات كلها بمن فيهم محمد ﷺ أو أشد.

* فهل يستطيع أن ينكر ذلك عاقل منصف؟!

* وهل يقول أو يعتقد مسلمٌ واعٍ أنّ المسلمين اليوم

=

واسعة، وسعت كل الخلافات في الأصول والفروع من كل الفرق المنتسبة إِلَىٰ الإسلام، بل امتدت علىٰ أيدي بعضهم إلىٰ الدعوة إلىٰ وحدة الأديان، وعقد مؤتمرات لذلك.

مثل المسلمين فِي القرون المفضلة لا يستمدون عقائدهم وعباداتهم إلّا من الكتاب والسنَّة؟!

إن الدعوة إِلَىٰ الحاكميَّة وتطبيقها أمر مهم، ويهم كلّ مسلم يفهم الإسلام - إذا روعيت شروطها -، وكل ما جاء به الرسول ﷺ مهم وعظيم.

لكننا نتساءل: هل الدعوة إِلَىٰ الحاكميَّة تستلزم الإهمال أو التقصير فِي أصل أصول الإسلام؟

الجواب: لا، إن حاكميَّة الله يجب أن تبدأ من أعظم شيء فِي الإسلام ألا وهو الاعتقاد في الله وفي أسماء جلاله وصفات كماله، كما تعرّف الله إلينا بها في كتابه العظيم، وكما علّمنا نبينا الكريم ﷺ؛ لتمتلئ قلوبنا بها نورًا وإيمانًا ويقينًا وإعظامًا وإجلالًا.

أيجوز فِي حاكميَّة الله ودينه أن تعطل أسماء جلاله وصفات كماله، وهي أسمىٰ وأجلُّ وأعظم ما ضمّه كتاب الله وسنَّة نبيه؟!!

* لماذا لا نطلب من علماء المسلمين بإلحاح أن يحكِّموا كتاب الله وسنَّة نبيّه في هذا الأمر الخطير؟!!

* أيجوز فِي حاكميَّة الله وشرعه ونظامه؛ أن يخالف كثير وكثير من المسلمين منهج الأنبياء فِي توحيد العبادة وإخلاصها لله، ويتخذوا مع الله أندادًا يدعونهم ويستغيثون بهم ويهتفون بهم فِي الشدائد، ويمعنون فِي ذلك حتىٰ يشركوهم فِي الربوبيَّة؛ فيعتقدون فيهم أنهم يعلمون الغيب ويتصرّفون فِي الكون؟!!

أليس هذا عدوانًا علىٰ أعظم حقوق الله؟!!

فأين الدعوة إلىٰ الحاكميَّة إذن، وأين هي العدالة؟!!

أيجوز فِي حكم الله وشرعه أن نغض الطرف عن الصوفيَّة، وهي تعبث بعقائد المسلمين وعقولهم؛ فتفسدها وتدمّرها بعقيدة الحلول ووحدة الوجود ووحدة الأديان... وبغير ذلك من ضلالات التصوّف؟!!

أيجوز في حاكميَّة الله ودينه أن تشاد الألوف من القبور، في معظم بلدان الإسلام؛ ليطاف بها ويعتكف حولها، وتشدّ إليها الرحال، وينذر لها بالكثير الكثير من الأموال، وتقام لها الاحتفالات، ويفعل المسلمون حولها وبها ما يندىٰ له جبين الإسلام، وما يضحك من المسلمين والإسلام أعداءه من الوثنيين واليهود والنصارىٰ والشيوعيين؟!!

أيجوز في حاكميَّة الله أن تموت السنن وتقوم علىٰ أنقاضها البدع والخرافات والأساطير؟!!

إنّ هذه الضلالات والشركيّات والبدع؛ قد طمست معالم التوحيد ومعالم الإسلام عمومًا.

لقد كان يقال لنا: إنّ هذه الأمور – البدع والشركيات – انتهت ودفنت. فكشفت الأيام أنّها حيّة باقية علىٰ أشدّها، ولها مدارس وحكومات تؤيدها وتحميها، ولها أحبارها ورهبانها وسدنتها؛ فلماذا لا نُفهم المسلمين أنّ هذه الأعمال الجاهليَّة تضاد حاكميَّة الله؟!

ولماذا لا ندعو أهلها إِلَىٰ التحاكم إِلَىٰ الله، والخضوع فِي كل هذه المجالات لحاكميَّة الله؟!

أتظنون أنّ هذه الأمور هيّنة وسهلة؟! ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، كلا ليس الأمر كما تتوهمون أو كما يقال لكم، إن إفساد علماء السوء والأحبار والرهبان وقادة البدع؛ أشد وأخطر من إفساد الحكام

وغيرهم؛ لأن الناس يخدعون بهم؛ فيحبونهم ويثقون بأقوالِهم ومناهجهم، فيتبعونهم ويضلون عن منهج الله بسببهم.

تعالوا معي إِلَىٰ القرآن الذي يهدي إِلَىٰ التي هي أقوم، والذي يعالج الأمراض والأخطار عن علم؛ لأنه تنزيل من عليم حكيم خبير.

لقد عاصر النبي ﷺ اليهود وليس لهم دولة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، فكم آية نزلت فيهم! وفي كم موطن من القرآن ذُمّوا وكشف عن عوارهم وبينت مخازيهم وخبث طواياهم؟

وعاصر الرسول ﷺ النصارىٰ ولهم دول وملوك، دولة القياصرة في أوربا والشام ومصر، ودولة الأحباش في الحبشة وإفريقيا، فهل واجه القرآن حكامهم وملوكهم،

أو واجه النصارىٰ أنفسهم وانحرافاتهم، وعلىٰ رأسهم رهبانهم وقسسهم؟!!

تعالوا إلَىٰ القرآن ليخبرنا من هو الأحق بالمواجهة، ومن واجه فعلًا.

قال تعالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال فِي اليهود والنّصارىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال تعالَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وتوفي رسول الله ﷺ وهو يلعن اليهود والنصارىٰ علىٰ انحرافهم العقائدي، فكان يقول: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

والآيات والأحاديث فِي ذمّهم وفِي انحرافهم العقدي والخلقي؛ كثيرة، وكذلك الأحاديث الشريفة، ولَم يذكر آيةً فِي ذمّ ملوك النصارىٰ وحكامهم المعاصرين للعهد النبوي الكريم علىٰ شرهم وخبثهم.

* فلماذا تسير الدعوة الإسلاميّة فِي هذا الاتجاه؟

لأنّ هذا هو منهج الدعوة الصحيح؛ ولأن الزعامات

الدينيّة المنحرفة أخطر بكثير من الزعامات السياسيَّة المنحرفة؛ لأنّ الزعامات الدينيَّة تكسب ثقة النَّاس ومحبّتهم وولاءهم، وينقاد النَّاس لها اختيارًا وحبًّا، فإذا كانت هذه الزعامات الدينيَّة ضالّة منحرفة؛ انحرفت بالنَّاس عن منهج الله، وقادتهم إلىٰ غضب الله والنار، وحتىٰ الحكام أنفسهم قد يخضعون لهذه القيادات والزعامات الدينيَّة، فهذا يهودي خاضع لزعامة دينيَّة، وهذا نصراني كذلك، وفيمن ينتمي إلىٰ الإسلام ذاك شيعي وذاك معتزلي وذاك أشعري وذاك خارجي وذاك صوفي وذاك... وذاك....

* فالزعامات والقيادات الدينيَّة المنحرفة؛ هي التي أفسدت عقائد هذه الأمَّة وأخلاقها وعباداتها وثقافاتها، ومزّقتها شرّ ممزّق، فلماذا نجاملها ونهوّن من شأنها ومن خطرها، وهي مصدر كلّ بلاء؟!!

فهناك التشيع والرفض وفرقها ومن اندس تحتها من زنادقة وملاحدة.

وهناك أئمة التصوّف وطرقها الكثيرة، وأفكارها الضالّة من وحدة وجود، ووحدة أديان، وحلول، وشركيّات، وبدع، وضلالات لا تنتهي عند حدّ، وهناك أئمة الخوارج والاعتزال والإرجاء والجبر، وكلّ هذه الزعامات قد لفّت الأمّة بطوفان من الفتن لا يعلم مداها إلا الله، وأكثر المسلمين إنّما هم دمًىٰ وأشباح تحركهم هذه الأفكار كغثاء تجرفه السيول.

فمن يريد إصلاح أحوال المسلمين مخلصًا جادًّا صادقًا؛ فليسلك طريق الأنبياء ومنهجهم، وعلىٰ رأسهم خاتم النبيين، وقد وضحناه مرارًا؛ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وأعتقد أنّ من ينحرف بالشباب والدعاة عن هذا المنهج؛ لم يعرف علىٰ أحسن أحواله منهج الأنبياء ودعوتهم، سواء كانت دعوته سياسيَّة أو صوفيَّة أو غيرها، فلقد تركنا رسول الله علىٰ بيضاء لا يزيغ عنها إلّا هالك.

ومن يصوّر للنَّاس أنّ منابع الفساد هم الحكَّام فقط؛ فهو مُخالف لِما قرّره القرآن الكريم، والسنَّة النبويَّة، والتأريخ الإنساني والإسلامي؛ ومستدرك علىٰ منهج الأنبياء خصوصًا إذا وجّه الدعاة إِلَىٰ حصر جهودهم وصبّها فِي المجال السياسي.

فمنابع الفساد الأساسيَّة والأصليَّة والخطيرة؛ هي التي قررها الله علىٰ أَلسِنة رسله جميعًا، ورسم لهم منهجًا لردمها، وما عداها فهو تابع لها؛ فليفهم الداعي إِلَىٰ الله

ذلك، وليعتصم بحبل الله، وليلزم غرز الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

يقولون: هناك مبشّرون وهناك شيوعيون وهناك صهيونيَّة وهناك استعمار، فلنترك المسلمين علىٰ ما هم عليه، ولنوجّه قوّتنا ضد هذه الأخطار المحدقة بالمسلمين.

وأقول: حاربوا هذه الأشياء بكل ما أوتيتم من قوّة، وبارك الله فِي جهودكم، ونحن والله معكم، ولكن علىٰ أساس ألّا تشغلنا عن إصلاح عقائد المسلمين وأخلاقهم، فإننا إذا رسَّخنا عقائد الأنبياء ومناهجهم في عقول المسلمين ونفوسهم؛ فقد وضعنا أعظم سدّ في وجه هذه القوىٰ الخبيثة من شيوعية ومبشرين وغيرهم، بل سيكون المسلمون هم المهاجمون لهذه القوىٰ.

وإن تركناهم مرضىٰ مهزوزين فِي عقائدهم، فمهما

بذلنا من جهد في محاربة هذه القوىٰ؛ فإنها سوف تستطيع التسلل والنفوذ إلىٰ عقول الكثير الكثير من هؤلاء المرضىٰ والمهزوزين؛ لأننا لم نحصِّنهم بعقائد الأنبياء ومنهجهم.

ومن سلم منهم من غزو هذه القوىٰ، فإنه يموت علىٰ غير منهج الأنبياء، ومن سيكون مسئولًا عنهم أمام الله إذن؟!

هذه بعض النماذج من أفكار الأستاذ المودودي، وأفكار هذا الاتجاه، والتي آمن بها كثير من النَّاس في الشرق والغرب، وأصبحت في نظرهم هي لبّ الإسلام، وهي غايتهم النهائيَّة التي من أجلها يكافحون، وفي سبيلها يضحّون.

ولقد أسهم فِي تقوية هذا التيار الذي أحدثه فكر الأستاذ المودودي وأمثاله؛ أقوال بعض الكتاب الإسلاميين مثل الأستاذ عبد القادر عودة الذي قال: «أحكام الإسلام شرعت للدنيا وللدين، والأحكام التي جاء بها الإسلام

علىٰ نوعين:

١ - أحكام يراد بها إقامة الدين، وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات.

٢ - وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة، وتنظيم علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، وهذه تشمل أحكام المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصيّة والدستوريَّة والدوليَّة... إلخ.

فالإسلام يمزج بين الدين والدنيا، وبين المسجد والدولة، فهو دين ودولة وعبادة وقيادة؛ وكما أنَّ الدين جزء من الإسلام، فالحكومة جزؤه الثاني بل جزؤه الأهمّ»!![1].

---

(١) «الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه» (ص٨٠)، وقد طبعته إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ولم تنبه علىٰ ما فِي هذا الكلام من خطأ.

قلت: هذا كلام خطير وبعيد عن الدقة؛ فأين أدلته وبراهينه الواضحة الصريحة علىٰ أن الحكومة أهم من التوحيد بأنواعه الثلاثة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وأهم من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وأهم من أركان الإسلام؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام، وسائر العبادات والأذكار والأدعية؟!

الحكومة حقٌّ من حقوق الإسلام وواجب من واجباته، ثم إن كان المراد رجال الحكومة فليس جزءًا من الإسلام، وإن كان المراد بها النصوص الإسلاميَّة التي تطبقها الحكومة فهي فعلًا جزء من الإسلام، ولكنّه

يمثل النصوص المتعلقة بالأمور الفرعيّة التي هي المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية... إلخ.

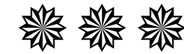
فلا تمثل الأساسيات والأصول، بل تمثل بعض الفروع؛ فلا يجوز أبدًا أن يقول مسلم أو يعتقد أنها الجزء الأهم من الإسلام، وقد بيّن الرسول الكريم والقرآن العظيم أركان الدين وأركان الإسلام، وليس فِي هذا البيان ما يصرح أو يلمح إِلَىٰ أن الحكومة هي الجزء الأهم من الإسلام.

وعلىٰ كلّ حال مثل هذه العبارات تقود إلىٰ الغلو في الناحية السياسية، وإلىٰ إهمال ما هو أهم منها من الدعوة إلىٰ عبادة الله ومحاربة الشرك والبدع، ومن نشر جوانب الإسلام الأخرىٰ.

وإن كان بعض قادة هذا الاتجاه قد أدرك ما وصل إليه الشباب من ولوع بالسياسة، وغلو فيها إلىٰ درجة

أنهم يكادون يحصرون جهودهم واهتمامهم في الناحية السياسية، وبأساليب لا يقرون عليها؛ فلماذا لا يعيدون النظر - رحمة بهذا الشباب - في مناهج تربيتهم، وفي تلك الأفكار السياسيَّة الخطيرة التي يجب أن يدرسوها دراسة واعية في ضوء الكتاب والسنَّة، فَيُقَرُّ ما وافق القرآن والسنة ويُتْرَكُ ما لم يوافقهما؟!

إنه لا بد من تربية الأمَّة علىٰ العقيدة الصحيحة، ولا بد من الانطلاق بها من هذه القاعدة، فالله نسأل للأمَّة الإسلاميَّة ولدعاتها التوفيق إلَىٰ الأخذ بمنهج الأنبياء الذي فيه سعادتهم وسيادتهم.





الخاتمة

*** وفِي الختام أقول:**

إنني أؤمن بحاكميَّة الله، وأن الحكم لله وحده، وأؤمن بشمول هذه الحاكميَّة، وأنّه يجب أن يخضع لها الأفراد والجماعات والحكام والدعاة.

وأن من لم يحكم بما أنزل الله في دعوته وفي عقيدته وفي دولته؛ فأولئك هم الظالمون، وهم الكافرون، وهم الفاسقون، كما قال الله تعالىٰ، وكما فهمه السلف الصالح، لا علىٰ ما فهمه المفرطون ولا المفرِّطون، وأنحي باللّائمة علىٰ من يحصرها فِي ناحية من النواحي،

أو يخالف منهج الأنبياء الواضح الحكيم، ويبدأ بالفروع قبل الأصول، وبالوسائل، ويجعلها غايات، ويؤخر أو يقصّر في شأن الغايات الحقيقيَّة التي تتابع عليها جميع الأنبياء.

وأمدّ يد الضراعة إِلَىٰ الله أن يوفق المسلمين جميعًا شعوبًا وحُكَّامًا ودعاة إِلىٰ تحكيم كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، فِي جميع شئونهم العقائديَّة والأخلاقية والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، وأن يوحد كلمتهم ويوحد صفوفهم علىٰ الحق، وأن يعافيهم من كلّ الأهواء والأمراض النفسيَّة التي مزَّقت صفوفهم وفرّقت كلمتهم، إنّ ربي لسميع الدعاء، وصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نبينا مُحَمَّد وعلىٰ آله وصحبه.

تَم بحمد الله



الموضـــــوع	رقم الصفحة
- الأصل الخطي لإذن فضيلة الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي	٣
مقدمة الطبعة الثالثة	٥
مقدمة الطبعة الثانية	١٧
مقدمة الطبعة الأولىٰ	٢٠
مقدمة العلامة صالح الفوزان علىٰ الكتاب الأمّ	٣١
نصُّ الكتاب الْمُختَصر	٤٨
الدافع لاختيار هذا الموضوع	٤٨

